ابو البقاء الرندي

شاعر رثاء الأندلس

الدكتور محمد رضوان الداية
أستاذ الأدب الأندلسي والمغربي
في جامعة دمشق

مكتبة سعد الدين

ابو البقاء الرندي

شاعر رثاء الأندلس

الطبعة الأولى
١٣٩٦ - ١٩٧٦
الطبعة الثانية
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

ابو البقاء الرندي

شاعر رثاء الأندلس

الدكتور محمد رضوان الداية
أستاذ الأدب الأندلسي والمغربي
في جامعة دمشق

مكتبة
سعد الدين
بيروت
ص.ب. ٨٧٢٣



بسم الله الرحمن الرحيم

اشتهر أبو البَقاء (أو أبو الطيِّب) الرُّندي بقصيدةٍ رثى بها الأندلس، أو هو رثى - على وجهِ الدقّة - المدنَ والبلدانَ والحصونَ والمناطقَ التي سقطت لِزَمانِه، في جُملة حركة الاستِغْلاب العارمة؛ وهي قصيدةٌ مؤثّرة مُشْجِيَة، اندفع فيها الشاعر مع حماسته الوطنيّة والدّينية، فبكى ما ضاع من ديار قومِه، واستنهضَ الهِممَ لاستردادِها وحرّض على القِتال والجِهاد. وكان لأوصافِ الأسرى، والنِّسوة المسبيّات، والمغلوبين على أمرهم من المُسلمين في القصيدة الأثرُ البعيدُ في التأثير في القارئ والسّامع... فكانت قيمةُ القصيدةِ مستمدّةً ممّا فيها من عاطفة جَيّاشة، ومما سَرد صاحبُها من أخبار مُحزنة؛ وممّا صاغَ من عِبارة، وممّا أثار من حَماسة.

وكانت المعلوماتُ عنه قليلة، بل إن المترجمين المعاصرين يَقْتَصِرون - في الأغلب - على نُقُولٍ قليلةٍ وردت

عنه في (نفح الطيب) و (أزهار الرياض) للمقّري التلمساني؛ لا يكادون يَزِيْدُون. ولم يكن الرُّندي في الحقيقة شخصيةً مغمورةً في زمانه، بل كان شاعراً بارزاً، متعدد جوانب المعرفة والثقافة والنشاط. فقد عُرِف عنه عنايته، وتأليفه في علم الفقه، والفرائض، والحَديث، وغيرِها من العُلوم الشّرعية، بالإضافة إلى جوانب أدبية مختلفة. وحين نذكر جوانبه المتعددة نقفُ على شخصيّة الرُّندي المترسل الكاتب، والناقد البلاغي، وهو يُعَدُّ واحِداً من نقّاد الأَنْدلس المتأخرين، وقد وصل إلينا كتابه النقدي: الوافي في نظم القوافي.

فنحن إذن أمام شخصية أندلسية مرموقة المكانة.

ولم يَغْفَل معاصروه ـ ومَنْ جاء بعدهم ـ عن مكانته، وعرفوا له حَقّه وقدروه قدره، بحسب إمكانات ذلك الوقت وظروفه. وهو حَظِي بعنِاية دولة بني الأحمر بعد أن استقرّ مقامهم في غرناطة، واستتبُّتْ أُمورهم فيها. وكان الشّعر أحدَ جوانب تلك الشخصية التي جدّدت ذكرياتِ القُرون الخالية من مشاهير الشُّعراء الأندلسيين البارزين.

ونقدم هذه الدراسة عن الرُّندي الأديب، الشاعر، الناقد، على أمل جَلاء بعض الغُموض الذي أحاط به عند المعاصرين، ودراسة جوانبه تلك دراسةً تبيّن أثره ومكانته في

الحـركة الأدبيـة في الأندلس، وتُقـرِّبُه إلى القـارىء والمتتبِّـع تقريباً، وتكون إسهاماً في العناية بالأندلس وآثارنا الأندلسية.

د. محمد رضوان الداية

وهران (بالقطر الجزائري)

كانون الثاني (جانفي) ١٩٧٥

الفصل الأول

الفرش
الحياة السياسية
الحياة الاجتماعية
الحياة العقلية

الحياة السياسية

كانت الأندلس ـ منذ أوائل عهد المسلمين بها ـ كما هو معلوم، ولايةً تابعةً للدّولة الأموية في المشرق (دمشق)، ثم انفصلت واستقلّت منذ زمن عبد الرحمن بن مُعاوية (الدّاخل).
وقد تحدّد مصيرها منذ ذلك الوقت بأنْ تنقطعَ عن الدولة الأمّ، وأن تواجه حركة الاستِغْلاب[1] الإسبانية، التي بدأت صغيرة متواضعة ثم نمت مع مرور الأيام. وظلّت كفة المسلمين راجحة طَوال عهد بني مروان؛ فلما كانت مدة دُول الفِرَق (الطّوائف) ضَعُفت قوتهم وفشلوا، ونشبت الفتنة بينهم، وأضاعُوا الجهاد، وأحَلُّوا محله أطماعاً إقليميّةً ضَيّقة لم تنفعهم في دوام دُنياهم، بل كانت وَبالاً عليهم وعلى أولادهم من بعدهم؛ وجنَت الأندلس من وراء ذلك خَسارة جسيمة.

(١) نفضل اصطلاح (الاستغلاب) الذي استعمله أحد مؤرخي الأندلس المعاصرين د. حسين مؤنس بدلاً من (الاسترداد) فهو أكثر ملاءمة ودلالة. (انظر الشعر الأندلسي ترجمة الدكتور مؤنس ص ٦١).

وعلى الرَّغم من سرَيان الدم المرابطي فالموحّدي في جسم الدّولة، والأرضِ الأندلسية في فترتين متعاقبتين (أواخر القرن الخامس ـ أوائل السَّابع) فإنّ الانحدار كان مُستمراً بطيئاً رويداً، إلى أن كان انهيار دولة الموحدين المفاجىء في كل من المغرب والأندلس، وتهافت الحكم الإسلاميّ وراء جبل طارق تَهافُتاً سريعاً، وانحصارُ المسلمين في دولة غرناطة.

وقد استغلّت دول النصارى الإسبانية فترتين قلقتين في حياة الأندلس السياسية والعسكرية. الأولى هي فترة الشغور الأندلسي من السلطة الواحدة القوية في القرن الخامس (نحو ٤٢٥ ـ ٤٧٩) حيث استطاع ـ في هذه الأثناء ـ ألفونسو السادس (الأذفونش كما يُسمّيه العرب) أن يستَغْلِب مدينة طُلَيْطِلَةَ المَنيعة[١] في وسط الأندلس مُؤْذِناً بخرم الخريطة الأندلسية ومنذراً بالتهام بلاد أخرى لا تقل عنها منعة وتحصيناً.

والفترة الثانية كانت بعد هزيمة العِقاب (٦٠٩) وانشغال الموحدين بخلافاتهم على السلطة، وبنشاط أشياعهم من بني مَرِيْن الذين بدؤوا ينقُضون سلطانهم لإقامة دول جديدة على أنقاضهم.

---

(١) راجع التاريخ الأندلسي ٣٢٦ وما بعدها.

واتفق هـذا ـ في المـدة والـوقت ـ مـع استعـار الحـرب الصليبية التي غزت المشـرق، وكان لـلأندلس ـ أيضـاً ـ منها نصيب. واعتبر البابا الحرب في الأندلس لاستغلابها مقدسة، وحرّضوا واحـداً بعد واحـد على أخـذ مـدنهـا ودولهـا بشتى الـوسائـل[1]. وهكذا؛ وبعـد انهيار الأنـدلس الكبرى، سقط معـظم المـدن الأنـدلسيـة العَـريقـة، والحُصـون الحصينـة، والمراكز الحضارية العـظيمة؛ واستـدرك بنو الأحمـر في دولة غـرناطـة ما أَمكن أن يستـدركـوه وهم بين تَمـاسُـك الشجـاع ومُداراة المَغْلوب.

في هذا القرن السابع الذي شهد المأساة الأندلسية ولد أبو البقاء الرُّندي وعاش، وتوفيّ. لقد رأى وأدرك ما أصاب بنيان الأنـدلس العظيمـة من التصـدع والانهيـار، فبكى مـا ضـاع، واستنهض الهمم لاستـرجـاعـه ـ دأب الشـاعـر الـذي يحس بقضـايا أمتـه ووطنه ـ ولاستـدراك ما فـات. وكـانت صـرخَتُـه صيحةً في جملة صيحات الاستغاثة والاستصراخ، أثمرت من بعـد ـ وكادَ يفـوتُ الأوان ـ تعـاونـاً بين بني مـرين (أصحـاب المغرب الجدد) وبني الأحمر (ملوك غرنـاطة) دامَ مـدّة طويلة من الزمان.

---

(١) عصر المرابطين والموحدين: محمد عبد الله عنان ٢ : ٢٨٨، والتاريخ الأندلسي. د. عبد الرحمن الحجي ٤٦٤. (وانظر مراجعها).

عصر الرُّندي:

كانت الأندلس، في أواخر القرن السادس الهجري، تحت ظِلّ الموحدين. وكانت قاعدةُ الدولة في معظم أيامهم مدينةَ إشبيلية، وهي لا تزال تحتفظ إلى اليوم بعدد من آثارهم العُمرانية والحضارية. وكانت الحرب الجهادية مستمرةً بينهم وبين الدّول الإسبانية المعاصرة. وكانت تلك الدول في النصف الثاني من القرن السادس وأوائل السابع خَمساً هي قَشْتالة وليُون، وأَرَغُون، ونَافار (نبرّة) والبُرتغال (البرتقال). وبعد أوائل الربع الأول من القرن السابع صارت إلى ثلاث دول فقط حين ذابت دولتان منهما في الثلاث الأخريات، وبقيت قَشْتالة وأَرَغُون والبُرتغال. واستمرت الدول الثلاث في حرب الاستغلاب، فكانت البرتغال تهاجم من الغرب وقشتالة من الشمال والوسط وأرغون من الشرق.

وكانت آخر معركة هامة انتصر فيها المسلمون هي وقعة الأَرك (٥٩١) قادَها أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي (٥٨٠ ـ ٥٩٥) ضد ألفونسو الثامن ملك قشتالة المؤيد بجيوش أرغون ونبرّة. وكان ألفُونسو هذا بجمع جيوشه والوافدين عليه هو المنتصر سنة ٦٠٩ في (العقاب) على ابن المنصور المقّب بالناصر. وقد كان وُجود بِطْرُه (بِذْرُو الثّاني) ملك أرغون في المعركة مع قوات أوروبية أُخرى يُضفي على المعركة صِفَة الحروب الصليبية المماثلة لما في المشرق في

المدة نفسها[1]. وقد كانت هزيمة المسلمين (موحّدين وأندلسيين) في العقاب منكرةً شنيعة، وكانت مِفتاحاً لتداعي الأندلسيين تداعياً سريعاً[2]. وسقطت على إثر المعركة عدة مدن وحصون أهمها بَيَّاسَة وأُبَّدَة. واتسع الخَرْق ـ مَن بعد ـ على الرّاقع!

وتعانَقت بعد هزيمة العقاب أمورٌ كثيرة أدّتْ إلى تهافت الحكم الإسلامي في الأندلس نُجملها فيما يلي:

١ ـ ضعفُ الدّولة الموحدية بتهافت خلفائها، والانقسام بين السادة والأَشْياخِ الموحدين فيما بينهم. وفي دولة المستنصر (ت ٦٢٠) الذي خَلف الناصر: «فشل أمر الموحدين وأشرفت دولَتُهم على الهرم، واستولى ألفنش (الفونسو الثامن القشتالي) على المعاقل التي أخَذها المسلمون، وهَزم حامية الأندلس في كل جهة، واستبدّت السّادة بالأطراف، والتاثَتْ الأُمورُ بالأندلس والمغرب أجمع: أما الأندلس: فَبِتكالُب العَدُوّ عليها وفناءِ حُماتها؛ وأما المغرب فَبِخلاء كثيرٍ من قراه وأمصاره من وقعة العقاب»[3].

(١) عصر المرابطين والموحدين ٢: ٢٨٩. وراجع الروض المعطار للحميري: ١٠٩، ١٣٨. وقارن بـ (التّاريخ الأندلسي ـ د. حجي).

(٢) راجع تفصيلاً لمقالات مؤرخي الأندلس كابن الأبار، وابن عذاري، والحميري وغيرهم في (تاريخ الأندلس): ٤٩٤ وما بعدها.

(٣) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأبي العباس الناصري ٢: ٢٢٦.

وكَثُـر المتآمرون من الموحدين في المغرب والأندلس فانفسح المجال أمام الثوار في العُدوتين للانتقاض والاستقلال.

٢ ـ ظهورُ دول أقل قوة من دولتي المرابـطين فالمـوحّدين في المغرب. فقد خَلف الموحّدين ثلاث دول: هي دولة بني مـرين في المغـرب الأقصى، ودولـة بني زَيّـان في المغــرب الأوسط، ودولة الحَفْصِيّين في المغرب الأدنى. وقـد كان بنـو مَـرِين هم الأقرب لـلأنـدلس؛ وسيحتلون مكـان المـرابـطين والمـوحـدين في الجهـاد بـالأنـدلس غيـر أن قــوة المـرينيين واستطاعتهم لم تكن كسابقيهم.

٣ ـ توالي استِغلاب الأندلس من جهاتهـا المختلفة. ففي نحو ثُلث قرنٍ من الزّمان ضـاعت معظم القـواعد الأنـدلسية. فبعـد العقاب (٦٠٩) كـانت وقعـةُ قصـر أبي دانس (٦١٤). وكان نجـومُ (ظهـور) عدد من الثوار في الأندلس (انظر الفقرة التـالية) عـاملاً مسـاعداً لسقـوط المدن واستغـلابهـا لضعفهم وسوء تدبيرهم وتشتّت قواهم ومُحاربة بعضهم بعضـاً أحيانـاً. وهكذا سقطت ماردة وبطليـوس (٦٣٨) بعد هـزيمة ابن هـود أمـام فرنـاندو الثـالث ملك قشتالـة. وسقـطت أُبَّـدَة (٦٣٠). وبَلَنْسِيَـة (بيد خـايمي الأول ملك أرغـون ٦٣٦) وشُقْـر ٦٣٩ ودَانِية (٦٤١) وشاطِبة ٦٤٤، ومُرْسِية (صلحاً بيد ملك قشتالة فرناندو ٦٤١) وسقطت قُرطبة في مـدة الخلاف بين ابن هـود

وابن الأحمر ٦٣٣. وسقطت جَيَّان (٦٤٣) وإشبيلية (٦٤٦). وكانت مَيُورْقَة (من الجزائر الشرقية) قد سقطت في معركة مؤثّرة سنة ٦٢٧. ويرى الناظر إلى الخريطة الأندلسية أنها كانت تُطوى سريعاً، وأن الاستغلابَ يأخذ شكلاً مأساوياً لم يكن يتوقّعه ملوك الدول الإسبانية أنفسهم.

٤ ـ ظهور عدد من الثوار والمتغلبين في الأندلس انقضوا على ملك الموحّدين ورفعوا راياتٍ إقليمية فعادت الفتنة من جديد وتهيَّأت ظروف مُشابهة لعصر الطوائف السابق قبل قرنين من الزمان. وكانوا حُكّاماً ضِعافاً ليست لهم مقومات القادة: خلا لهمُ الجَوّ فنَعقُوا ولم يفلحوا في استنقاذ أمر الأندلس[1]، اللهم إلا ما كان من أمر بني الأحمر في غرناطة.

● في سنة ٦٢٥ خرج محمد بن هُود الجُذَامِيّ في نواحي مُرْسِية، ودخلها مستولياً عليها من صاحبها أبي العباس الموحّدي، وخطب للخليفة العباسي، وبايعتْ لهُ قرطبة وإشبيلية وشاطبة وغيرها مدةً قصيرة، ومات سنة ٦٣٥.

● صارت بَلنسية إلى أبي جميل زيان بن مدافع بن مَرْدَنِيْش الجُذامي بعد أن طرد السيّد أبا زيد الموحّدي،

(١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (أشباخ) ترجمة محمد عبد الله عنان: ٣٩٩.

وبقيت في يده إلى أن احتلّها ملك أرغون خايمي الأول، على الرغم من محاولة ابن مردنيش الاستنصار بالأمير الحفصي صاحب تونس على يد كاتبه ابن الأبار.

● وفي سنة ٦٢٩ قام محمّد بن الأحمر بحصن أرجُونَة (من أعمال قرطبة)وتنازع مع ابن هود إمارة الأندلس وكانت بينهما وقائع ومناوزات سياسية، انتهت بعد موت ابن هود (٦٣٥) ومبايعة غرناطة لابن الأحمر واستقراره فيها، كما سنبين.

د ـ ظهور ملوك أقوياء في الدُّول الإسبانية المجاورة، مع استقرار الحكم في أيديهم، وتطاول مدتهم، مع التّصميم على استغلاب الأندلس، وتعاونهم على ذلك. أضف إلى ذلك المُساعدات العسكرية والبشرية المستمرة التي كانت تفد عليهم من البلاد الأوروبية[1].

٦ ـ تَحمُّل المغرب والأندلس للخطوب الكثيرة الأخرى، فمنها: قلة عدد السكان، وخصوصاً المجاربين منهم بسبب الحروب المتكاثفة، وبسبب عدد من الهزائم الشّنيعة التي انتصرت فيها الدول المجاورة لغرناطة. ومنها إصابة الناس

(١) المصدر السابق ٤٤١ ـ ٤٤٥. وانظر مقدمة الحلة السيراء لابن الأبار (الدكتور حسين مؤنس: ص ٢٥ على الخصوص).

بالأوبئة والطواعين كما في عام ٦١٠[١]. ومنها تناوب سنوات القحط والجدب والجراد والغلاء في أثناء هذه الأزمة السياسية العسكرية كما هو الحال في سنوات ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٣٠، ٦٣٥[٢].

دولة غرناطة في ظل بني الأحمر:

خرج محمد بن يوسف (المعروف بابن الأحمر) في أرجونة سنة ٦٢٩. وهو من أسرة تُعرف ببني نَصْر، وببني الأحمر. وينتهي نسبهم إلى الصحابي الجليل سعد بن عُبادة الأنصاري. وكان خروجه ـ كما سلف ـ في مدة تهاوي سلطان الموحدين؛ فدعا لنفسه، وخالف ابن هود، فأطاعته بيَّاسة ووادي آش ونواحيهما، وخَطب للمُستنصر الحفصي وأطاعته قرمونة وقرطبة وإشبيلية حيناً ثم عادت إلى ابن هود، وتفاهَم ابن الأحمر مدة مع ابن هود لما جاءه التأييد من الخليفة العباسي.

وفي رمضان ٦٣٥ ثار أهل غرناطة بوالي ابن هود عليهم وهو عُتبة بن يحيى المغيلي، وخرج وفدٌ استقدم ابن الأحمر ونصبه أميراً على غرناطة، وما انضم إليها من مَوْسَطةِ الأندلس وجَنُوبها مما شكل دولة غرناطة التي قاومت ببسالة وشجاعة

(١) الاستقصا للناصري ٢: ٢٦٢.

(٢) الاستقصا للناصري ٢: ٢٦٤.

قرنين ونصف قرن من الزمان. وكان موقف ابن الأحمر حرجاً، وكان في الوقت نفسه يضطرم بحماسة وطنية ودينية غير أنه لم يستطع أن يقف في مواجهة تيار الهجمات القشتالية - الأرغونية - البرتغالية دون التضحيات الجسام. ففي سنة ٦٤٣ هادن ابن الأحمر فرناندو الثالث ملك قشتالة واضطر لأن يترك له عدداً من المدن والحصون كأُرجُونة وجَيّان[١]. ومن جراء الهدنة معه كانت إشبيلية فريسة سهلة وسقطت سنة ٦٤٦. بينما كان ابن محفوظ المُتَولّي نظرَ بعض جهات الغرب قد تنازل عن عدد من الحواضر الهامة مثل طَلْبِيرة والعُلى وشِلْب. وتتالت الأحداث بعد ذلك على غرناطة بين مسالمة بني الأحمر لقشتالة وتحالفهم معها وبين المدافعة ومحاولة استرداد بعض المفقود من أرض الوطن. ففي ٦٦٠ هَزَم ابن الأحمر غزوة نصرانية على أراضيه، بمعاونة مطّوعة قدمت من المغرب[٢]. وسقطت مدينة إسْتِجَة سنة ٦٦٢ بتنازل صاحبها ابن يونس لملك قشتالة[٣]. واشتد ضغطُ القشتاليين على غرناطة بقيادة صهر ملكهم دون

---

(١) في نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (م. عنان) أن ابن الأحمر تعهد أيضاً بالانضواء تحت طاعة فرناندو وبحضور مجلس الكورتيس (شبيه بمجلس النواب). وهذا يعني الطاعة والولاء. وانظر دراسته حول الموضوع ص ٣٠ وما بعدها من الكتاب المذكور.

(٢)، (٣) انظر نهاية الأندلس (م. عنان): ٣٣ - ٣٠.

نونيودي لارا، فكتب أبو العَبّاس العَزَفِيّ يستصرخ قبائل المغرب لإنقاذ الأندلس. وأنشد أبو الحكم مالك بن المُرَحّل قصيدة مؤثرة لاستنهاض الهمم تُليت في مسجد فاس مطلعها[1]:

استنصرَ الدينُ بكم فأقدِمُوا	فإنّكُم إن تُسْلِمُوه يُسْلَمُ
لاذَت بكمْ أنْدَلُسٌ ناشِدَةً	برحِم الدِّين ونِعْمَ الرَّحِمُ
لا تُسْلِمُوا الإسلامَ يا إخوانَنا	وأسْرِجُوا لِنَصْرِهِ وأَلْجِمُوا

واستردت غرناطة مدينة شَرِيش بعد حملة بني مرين التي أنجدت الأندلس سنة ٦٦٢. وبعد ضغوط قشتالة بايع ابنُ الأحمر للمستنصر الحفصي صاحب تونس، ولكنّ هذه الخطوة لم تؤدِّ إلى أن ترفع الضغط عن غرناطة.

ويرى الأستاذ عنان في تاريخه أنه لما تفاقم عدوان القشتاليين وضغطهم لم يرَ ابن الأحمر مناصاً من أن يخطو خطوة جديدة في مُهادنة ملكهم ومصادقته فنزل له أواخر سنة ٦٦٥ عن عدد كبير من المدن والحصون منها شريش والمدينة والقلعة[2]. وقدَّر صاحب الذخيرة السنية جملة ما تنازل عنه بنحو أربعين مُسَوَّراً من المُدُنِ والحصون[3]، وقيل مئة!.

---

(١) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية لابن أبي زرع الفاسي: ٩٨.

(٢) نهاية الأندلس: ٣٦.

(٣) الذخيرة السنية: ١١٢.

ولما أعطى ابن الأحمر البلاد المذكورة للألفونش (ألفونس) قال الفقيه أبو محمد صالح بن شريف الرُّندي يرثي بلاد الأندلس، ويستنصر بأهل العُدوة من مرين وغيرهم بهذه القصيدة:

لكل شيء إذا ما تمَّ نُقصانُ
فلا يغرَّ بطيبِ العَيْشِ إنسانُ(١)

وعلى رغم هذه التّنازلات والمُعاهدات، فقد كان الضغط على دولة غرناطة كَبيراً، وقد هاجَم ألفونس العاشر (القشتالي) البلاد الأندلسية سنة ٦٧١ فاستنجدَ ابنُ الأحمر بالمرينيين. وتوفي في العام نفسه؛ وأوصى ابنه محمداً (الفقيه) الذي ولي بعده بأن يصل يده بيد المَرِينيّين. وقد تم اللقاء بين النصريين والمرينيين. وعبر السلطان المريني أربع مرات في أثناء حكمه لمساعدة الأندلس والجهاد فيها. وهُزم القشتاليون بعد هذا التحالف عدداً من الهزائم أهمها في إسْتِجَة ٧٧٤. وترك المرينيون حامية مغربية دائمة في الأندلس تحت رعاية قائد منهم عرف بِشَيْخِ الغُزاة. وأول من تقلد هذا المنصب عبد اللّه بن أبي العلاء، وبقيت مشيخة الغزاة في أسرة بني العلاء. وعلى الرغم من أن العلاقة بين بني نصر وبني مرين

---

(١) المصدر السابق: ١١٢.

لم تكن دائماً خالصة من المشكلات الجانبية[1] فإن الصورة العامة هي استردادُ الأندلسِ لعهدٍ من الثبات والقوة فقدته منذ زمن بعيد. وحكمَ محمد الفقيه حتى سنة ٧٠١.

حال المشرق:

وإذا التفتنا نحو المشرق في هذه المدة وجدناه يعاني من الحملات الصليبية التي استهدفت عدداً كبيراً من أقطاره مع التركيز على بيتِ المقدس، في حرب ضَرُوس. وقد تصدّى لها الزنكيون والأيوبيون من بعدهم، ثم انتهت المهمة على يد المماليك، فانقطع أمل الأوروبيين بعد ذلك.

دخل الصليبيّون بلاد الشام، وعليها حكّامٌ من السّلاجقة المتفرّقين على بُلدانها الرئيسية؛ فاحتلوا أنطاكية والرها، وامتدوا إلى القدس وغيرها من البلاد. ولم يلبث أن ظهر بنو زنكي في الموصل والجزيرة الشامية، وكان أشهرهم عماد الدين ونور الدين «اللذين بدآ عملية منظمة لحرب الصليبيين وتصفيتهم»[2].

---

(١) مثل ترتيب قضايا (الغزاة) المجاهدين المرينيين في الأندلس، ومشكلة أصهار بني الأحمر في مالقة (بني أشقيلولة) الذين دخلوا مع أقاربهم النصريين في خلافات داخلية.

(٢) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية (كارل بروكلمان) ترجمة فارس وبعلبكي (الطبعة الخامسة) صفحة ٣٤٧. وراجع الصفحات التالية.

وظهر في دولة الزنكيّين صَلاح الدّين الأيُّوبي «مع مجموعة من أسـرته هـو أشهرهم». وحصلت مصـر في يد نـور الـدين زنكي، وكان قائده ومبعوثـه فيها هـو صلاح الـدين الذي سعى لإلغاء الخلافة الفاطميّة وصارت مصر جزءاً من دولـة الزنكيين الممتدة ما بين أطـراف العراق والشـام ومصر، مُـروراً بأجـزاء من فلسطين. ومدَّ صلاح الدين نفوذه بالاستيلاء على اليَمن. وآلَ الأمـر بعـد حـوادث كثيـرة إلى أن تـرأس صـلاح الدِّيـن الدولة، وتـولى محاربـة الصليبيين فانتصـر في حطين، وفتـحَ القُـدس سنـة ٥٨٣ واستـرد معـظم مـا بـأيـديهم من القـلاع والمدن[١].

وتولى بقيةُ الأيوبيين الذي تعاقبوا بعد صلاح الـدين (توفي سنة ٥٩١) مهمّة محاربة الصليبين. وتم القضاء عليهم في أيام المماليك بشكل نهائي.

أمـا الخـلافـة العبّـاسيـة فقـد سقـطت سنـة ٦٥٦ هـ حين وصلتْ هجمـة المغُـول إلى بغـداد، مـروراً بـأقـطار الشـــرق الإسلامي حيث عاثوا فساداً، وخرَّبُوا كثيراً من معالـم الحضارة الإسلامية. غير أن جيوشهم قوبلت بالهزيمـة السـاحقة في عين

---

(١) في رحلة ابن جبـير نص هـام عن تقـديـر الـرحـالـة الأنـدلسي لشخصيـة صلاح الدين، وتشبيهـه بعض أمراء الفتـرة هناك بملوك طـوائف الأندلس ـ راجع الرحلة (ط دار صادر): ٢٥٤.

جالوت سنة ٦٥٨ على يد جيوش السلطان قُطز بقيادة بيبرس. وكان المغول بدؤوا غزوهم للشرق الإسلامي في مطلع القرن السابع ناشرين الخراب والدمار حيثما حلوا وسلكوا. وكانت ذروة أعمالهم إسقاط الخلافة وخراب بغداد. وفي الواقع كان سلطان الخليفة متقلّصاً على الصعيدين السياسي والعسكري منذ زمن بعيد.

* * *

الحياة الاجتماعية

كانت الأندلس في أوائل القرن السابع ما تزالُ ولايةً تابعة للدولة الموحدية. فلما كان الانهيارُ والانحدارُ قام الطّامحون والطامعون، واضطراب حبلِ السياسة والاستقرار بظهور بني هُود وبني مَرْدَنِيْش وبني الأَحْمَر وغيرهم. ولم يستطع أحد من المتوثّبين أن يجمع شملَ الأندلس تحت رايته. أما محمد بن الأحمر فقد احتفظ بما أمكنه من الأندلس، ولكنه كان قليلاً بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل ربع قرن. وضمت الأندلس الباقية الجزء الجنوبي الشرقي من جنوبي الوادي الكبير إلى الجزيرة الخضراء وامتدّت مشرقاً بين مدينة بَسْطَة وثغر المَرِيَّة، وغرباً حتى شَذُونَة في ولاية قادِس. وشملت مملكة غرناطة ثلاث ولايات هي ولاية غَرْنَاطة وقاعدتها مدينة غَرناطة، وولاية المَرِيَّة في الشرق، وولاية مَالَقَة في الجنوب.

وقد صارت غرناطة ـ بعد سقوط الأمصار الكبرى ـ عاصمة الدولة وحاضرتها واتّسعت مساحتها وكثُر سكانها وازدهرت

بالأعمال والصنائع، وبرزت بين مدن الأندلس الباقية. ولقيت عناية أمراء بني الأحمر واحداً بعد واحد، وخلدت آثاراً لا تزال إلى اليوم شاهدة بحضارة عريقة.

وقد ازدحمت غرناطة واتسعت بمن وفد إليها واستقر بها من أهل البلاد الأندلسية التي سقطت في أيدي الإسبان[1]. فعلى الرغم من المعاهدات والمواثيق التي كان تتمّ بين الأندلسيين المغلوبين وخصومهم، فإن الهجرة والنزوح كانت الضمان الوحيد للأندلسيين للاحتفاظ بلغتهم ودينهم وحريتهم[2].

ومع ذلك فإننا نسجّل هنا ظاهرة أخرى، وهي الهجرة من الأندلس إلى المغرب في بلدانه المختلفة من أدناه إلى أقصاه. وقد وصَل عددٌ من الأندلسيين ـ وخصوصاً أهل العلم والثقافة ـ في هجرتهم إلى المشرق. وعلى كل حال فإن تقدير بعض الباحثين أن «مملكة غرناطة كانت تضم في عصورها الأخيرة زهاء خمسة أو ستة ملايين من الأنفس. وكانت غرناطة وحدها تضم أكثر من نصف مليون نفس. وكانت الأمّة الأندلسية عندئذ خليطاً من أعقاب العرب والبربر والمولدين أو المسلمين الإسبان الذين أسلموا عند الفتح»[3].

---

(١) انظر نفح الطيب ٤ : ٥١٠.

(٢) نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (م. عنان): ٤٨.

(٣) المرجع السابق.

وكانت العُروبة تغلب على السكان المدنيّين في مملكة غرناطة ولا سيما بعد أن نزح إليها على إثر سقوط القواعد الأندلسية في يد النصارى كثير من سادة البطون العربية القديمة.

وازدهرت في دولة غرناطة حضارة رفيعة تناولت الجوانب المتعددة في العلوم والآداب والصنائع والعمران، بالإضافة إلى استمرار التقاليد الزّراعية والتجارية على نشاطها ونموها. ولم يكن يضعفها غير الاضطراب السياسي والمعارك التي تنشب بين الفريقين، وعلى الرغم من أن الأصل في العلاقة بين غرناطة وجوارها هو الحرب والقتال، فقد كانت هناك معاهدات تجارية تقوم بين غرناطة وبينهم «وكانت العلاقات التجارية أيام السِّلم تجري بانتظام»(١).

---

(١) نهاية الأندلس: ٥٧.

الحياة العقلية

تزخر كتب التراجم الأندلسية ـ لهذا القرن السابع ـ بالعدد الجم من أسماء العلماء والمهندسين والأدباء والفقهاء والمحدثين والأطباء وغيرهم. وقد تفرق علماء البلدان الأندلسية المحتلة في البلاد، فأكثرهم أوى إلى مدن مملكة غرناطة، وانتشر قسم منهم في أقطار المغرب الإسلامي ومشرقه.

وقد لا يقع الملاحظ على طفرات علميّة كبيرة في مدة دولة غرناطة، غير أن الأمر الذي لا شك فيه هو أن الحياة الفكرية والحضارية كانت استمراراً أميناً لما وصلت إليه في العصر الموحّدي السابق، مع محاولات دائمة لإبقاء نسغ الحياة متجدداً متطوراً، في كلا الجانبين العملي التطبيقي والنظري الفكري.

وظلت السّمات العامة للحضارة في غرناطة سمات إسلامية أندلسية تتميز بطابعها الخاص. أما وجوه المَشابِهِ

التي لاحظها ابن خلدون بين الأندلسيين والإسبان في زمانه فقد جاءت متأخرة، وهي مشابه تتعلق بالملابس والأسلحة والعادات إلى أشياء أخرى ذَكَرها.

وقد استمرت العلوم الشرعية والإسلامية بعامّةٍ على مستواها الرفيع وظهر عدد كبير من العلماء الذين تابعوا أمور الفقه والتفسير والحديث والأصول. وخرَّجت علوم اللغة العربية وآدابها رجالاً ما زالت شهرتهم متصلة إلى اليوم. أما الشّعر فبقيت له مكانة عند أصحاب الشأن ـ على الرغم من اضطراب الأمور العامة ـ وبقيت في الشعر الأندلسي روح الشعر الرَّفيع وأصالةِ الشعراء المتمكّنين. وظهر رجال في علوم الطبّ والهندسةِ والنّبات والصَّيْدلة، كما نبغَ جغرافيون ورحالة ومؤرخون عرفهم المشرق نفسه، وقدرهم منازلهم من التكريم. ولعل هذا الاستمرار الحضاري ناشيء عن أن المُصاب الأندلسي الفادح في خسران الأرض وانحسار السيادة لم يصل إلى استِهلاك الحضارة وانحدار المدنيّة. كما أن المستوى الذي وصلوا إليه حتى عصر الموحّدين لم يكن حضارة قشرية زائفة تضيعُ عند أول هزّة أو أدنى اختبار. ويبقى السؤال مطروحاً عن هذين الوجهين المختلفين، وقد يكونان أحياناً متناقضين: أحوال الأندلس السياسية ـ العسكرية من جهة، وأحوالها الحضارية والثقافية من جهة أخرى.

فمن المُحَدّثين المشهورين في القرن السابع: أبو الربيع

سالم بن سليمان الحِمْيريّ الكلاعي البلنسي (٦٣٣)، وأبو الحسن علي بن محمد بن القطّان (٨٢٧) وابن خَلفون الأزدي الأُونَبِي (٦٣٥). [نسبة إلى مدينة أونبة].

واشتهر من المؤرخين بنو سعيد، ومنهم صاحب كتاب المُغرب في حُلى المَغرب[1] بالإضافة إلى مؤرخين من المغرب اتصلوا بالأندلس وأرّخوا لها كعبَد الواحد المراكشي صاحب المُعجب، وابن عِذاري صاحب البيان المُغرب[2].

ومن الجغرافيين أبو الحسين محمد بن أحمد بن جُبَيْر (٦١٤) وأبو محمد العَبْدَرِيّ. ولهما رحلتان مشهورتان. ومنهم علي بنُ سعيد الوارد ذكره في المؤرخين أيضاً. ولمحمد بن عمر السبتي (المشهور بابن رُشيد) رحلتان اثنتان إلى المغرب، وإلى ديار الأندلس[3].

ونبغ في إشبيلية أسرة بني زُهر في الطب على الخصوص، بالإضافة إلى نشاطهم العلمي والأدبي. ومن أطباء هذه المدة المشهورين أحمد بن مفرِّج الأموي الشهير بابن الرومية (ت ٦٣٧). ومن علماء النبات ابن البَيْطار المولود في مالقة ٥٩٣، والمتوفَّى بدمشق ٦٤٥. وظهر علماء

---

(١) طبع في القاهرة في جزأين (تحقيق د. شوقي ضيف).
(٢) والكتابان مطبوعان أيضاً.
(٣) راجع تاريخ الفكر الأندلسي: ٢٦٢ وما بعدها.

في الهندسة والرياضيات، كأبي بكر محمد بن أحمد الرُّقُوطي (٧٤٤).

أما الأدباء والشعراء فكانـوا جمهرة وفيـرة تدل عليهم كتب التراجم العامة وكتب التراجم الأدبيـة التي خلفها هـذا العصر مثـل: المُغـرب لابن سعيـد، وصلة الصِّلة لابن الـزبيـر، والمُعْجِب للمرّاكشي والمُعْجَم لابن الأبَّار وغير ذلك من كتب كثيرة غزيرة.

وكانَ في جملة الشعراء المشهورين: ابنُ الأبّار وابن سهل الإشبيلي وأبـو البَقاء الـرُّنـدي وحـازِم القَـرْطَـاجَنِّي. كمـا أن الـموشح والـزجل كـانا فنَّين رائجين، وإن كـان الموشـح قـد تراجع على الصعيد الشعبي أمام تقـدم فن الزجـل بعد نبـوغ ابن قُزمان ومَدغَلِّيس. وفي كتاب (المُغـرب) نماذج هـامة من الـموشحات والأزجال لرجال هذا العصر.

وفي هذه المدة نفسهـا «القرن السـابع» نجـد حركـة النقد الأدبي نشيطة، متابِعة لما سبق. ونقف في هـذا المجال عنـد شخصيتين نقـديتين هما: حـازِم القَرْطـاجني صـاحب كتـاب «منهـاج البلغاء وسـراج الأدباء» وأبـو البقاء الـرُّنـدي صـاحب كتـاب «الوافي في نـظم القوافي» وقـد وصل إلينـا الكتابـان. ويعـد كتاب «حـازم» من أهم كتب النقد الأدبي في الأنـدلس والمشرق.

الفصل الثاني

حياة الرندي

اسمه وكنيته:

هو صالحُ بن يزيد بن صالح بن موسى بن علي بن شريف، النَّفزي، مَن أهل رُنْدَة[1].

ويكنى أبا الطيّب، وأبا البقاء. والحق أن ابن الخطيب في الإحاطة لم ينقل عن أحد ممن ترجموا له أنه يكنى بغير أبي الطيّب. وأول من ذكره بكنية أبي البقاء ـ بالإضافة إلى كنيته الأخرى ـ هو المقّري في نفح الطيب. وقد ذكره عدة مرات في النَّفحِ والأَزْهار واختار من شعره، ونقل قصيدته في رثاء الأندلس. ولا بد من الافتراض أن للرُّندي كنيتين عُرف بهما[2]. ويبدو أن شيوع كنية أبي البقاء[3] في المشرق والمغرب جاءت بعد المقري الذي ذكر تلك الكنية مرّة واحدة في كتابه، ويرجح عندي أن (أبا الطيب) كانت الأشهر في زمانه.

---

(١) ترجم له ابن الزبير في صلة الصلة، ونقل عنه ابن الخطيب في الإحاطة وابن عبد الملك في الذيل والتكملة (بقية السفر الرابع): ١٣٦ ـ ١٣٩. وابن الخطيب في الإحاطة (مخطوطة الإسكوريال: ٣٧). وذكره صاحب الذخيرة السنية حين ذكر قصيدته في رثاء الأندلس. والمقري في نفح الطيب، وأزهار الرياض (في مواضع عديدة).
وانظر بروكلمان Brock. S1 860, SII, 925.

(٢) راجع مقالة الأستاذ عبد الله كنون عن الرندي في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية المجلد ٦ العدد ١ ـ ٢ الصّفحة ٢١٢.

(٣) يكثر أن يكنى بأبي البقاء من يسمى بـ (خالد).

وفي خبر أورده الرندي[1] عن أحد أبناء الأمراء المسمى أبا سعيد بن نصر أنه كان سمع أبياتاً غزلية للرُّندي فأعجب بها. واتفق أن ورد الشاعر على والده الأمير النصري فمدحه بقصيدة جمع فيها أبيات الغزل تلك إلى أبيات في المديح، فظنّ أبو سعيد بن نصر أن هذا الشاعر - وقد نسي أنه هو صاحبها - سرق الأبيات. فقال الرندي قصيدة مرتجلة يعتذر فيها ويوضح ويبين الموقف، ومن القصيدة الجديدة:

منكَ القَبولُ ومنّي اليومَ معذِرَةٌ
إلى عُلاكَ ولا ذَنْبٌ ولا لَمَمُ
أنا أبو الطيّب الثّاني لِمُنْتَقِدٍ
وأنتَ سيفُ المَعالي الأوحَدُ العَلَمُ

نسبته:

ينتسب الرندي إلى قبيلة نَفْزَة، وهي من قبائل البربر. وينتمي إلى مدينة رُندة. قال في الروض المعطار[2] إنها «من مدن تاكُرُنَّا. وهي مدينة قديمة بها آثار كثيرة، وهي على نهر يُنسب إليها». كما نقل ابن سعيد في (المُغرب) أنها أحد معاقل الأندلس الممتنعة، وقواعدها المرتفعة. وقد كانت في

---

(١) الوافي (نسخة تيمور باشا: ٦٤ - ٦٥).

(٢) الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) للحميري: ٧٩.

أيـام البدولـة المروانيـة في منطقـة ثورة عمـر بن حفصون ودار حَـوْلَها خِـلافٌ ونشبت معـارك في أيـام ملوك الـطوائف حتى حصلت في يد بَنِي عبّاد. وبقيت رُندة في جملة دولة غرناطـة الإسلامية الباقية إلى أواخر أيامها[1].

مولده ووفاته:

ولـد في محرم سنـة إحدى وست مئـة، وتوفي عـام أربعـة وثمانين وست مئة. قال ابن الخطيب «نقلت من خط صـاحبنا الفقيه المؤرخ أبي المحاسن بن الحسن ـ أمتـع الله به ـ قـال أنشدني الشيخ الراوية الأديب القـاضي الفاضـل أبو الحجـاج يوسف بـن موسى بن نعمان المَشاقِري، قال أنشدني القاضي الفاضل أبـو القاسم بـن الـوزير، قـال أنشدني شيخي الأديب أبـو الطيب صـالح بن أبي خـالد يـزيد بن صـالح بن شـريف الرندي لنفسه لتكتَب على قبره:

خَلِيليَّ بالوُدِّ الّذي بينَنا اجْعَلا   إذا مِتُّ قَبْرِي عُرْضَـةً للترحُّم
عَسَىٰ مُسْلِمٌ يَدنو فيدعُو برحمةٍ   فإنِّي مُحتاجٌ لـدعوةِ مُسْلمِ[2]

---

(١) انـظر: الـروض المعـطار: ٧٩، والمغـرب لابن سعيـد ١: ٣٣٤ ومعجم البلدان ٣: ٧٣.
ودائرة المعارف الإسلامية ـ مادة رندة.
وقد سقطت رندة في يد الملكين الاسبانيين بخدعة سنة ٨٩٠ هـ.

(٢) الإحاطة (ترجمة الرندي).

أسرته:

لا نجد في كتب التراجم حديثاً عن أسرته وأولاده، ولا نعرفُ من اشتهر من أهله بعده. غيرأننا نعرف أن له ابناً يدعى أبا بكر قد توفي صغيراً (ابن ٨ سنوات). وقد رثاه بأكثر من قصيدة في كتابه الوافي. وقال الرندي في مقدمة قصيدة أنشدها في المغرب (بَرّ العُدوة) إنه يتشوق إلى الأهل والوطن، ولكنه لم يُفَصِّل في ذكر أهله. وله قصيدة في رثاء والده، ذكرها في الوافي.

مشيخته:

قال ابنُ عبد الملك[1]: «روى عن آباء الحسن: أبيه، والدباج، الفخار الشريشي، وأبي الحسين بن قطرال، وأبي القاسم بن الجد التونسي». وقال ابن الزبير - كما نقل لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة - حين ترجم له «تكرّر لقائي إياه، وقد أقام بمالقة أشهراً - أيام إقرائي، وأنشدني كثيراً من شعره». وكان صاحب الذيل والتكملة (ابن عبد الملك) معاصراً للرندي، فاستجازه، قال: «وكتب إلي بإجازة ما رواه وألَّفه وأنشأه نظماً ونثراً».

أما شُيوخ الرُّندي فهم من أعلام العصر في فنون مختلفة

(١) الذيل والتكملة (بقية السفر الرابع): ١٣٧.

فأبو الحسن الدّبّاج كان من أهل الفضل والصلاح، مقرئاً، محدثاً، متقدماً في العربية والآداب، ويقرض قطعاً من الشعر يجيد فيها. وهو توفي ٦٤٦[١]. وابن الفَخّار الشريشي كان عارفاً بالحديث حافظاً للفقه والآداب، وهو استُقضِيَ برُندة، والجزيرة الخضراء، وتوفي سنة ٦٤٢[٢]. وبقية شيوخه ممن تحدثت كتب التراجم عنهم بالعلم والفضل والتقدم[٣].

ويبدو أن الرندي تلقى علومه واستكمل ثقافته في مدينة رُندة. وأنه عندما تنقل وترحل عن بلده كان قد ثبت على قدم في العلوم والفنون راسخة، حتى عرف له معاصروه فضله ومكانته.

رحلاته وتغربه عن رُندة:

كانت للرُّندي رحلاتٌ وأسفارٌ إلى أنحاء الأندلس الباقية في عصره، وأكثر رحلاته وأسفاره كان إلى الحاضرة «غرناطة». فقد نقل لسان الدين أنه «كان كثير الوفادة على غرناطة والتردد إليها يسترفد ملوكها، وينشد أمراءها. والقصيدة التي أوّلها:

* أواصِلَتي يَوْماً وهاجِرَتي ألفا *

(١) المصدر السابق (السفر الخامس، القسم الأول) ١٩٨.

(٢) المصدر السابق: ١٨٥.

(٣) وانظر أيضاً الذيل والتكملة (الخامس ـ الأول): ٢٤٦.

أخبرني شيخنا أبو عبد الله اللوشي الكاتب أنه نظم باقتراح السلطان، وقد أوعز إليه ألا يخرج عن بعض بساتين السلطان حتى يكملها، في معارضة «محمد بن هانىء الإلبيري»[1].

وكانت له رحلة ـ أو أكثر ـ إلى المغرب، لا نَدْرِي متى كانت على التحديد، غير أننا نجد في جملة قصائده المبثوثة في كتابه «الوافي في نظم القوافي» قصيدة يحن فيها إلى الأندلس. قال[2] «ومما يتعلق بذلك ـ يعني باب الوصف ـ قولي وأنا بِمَرّاكُش:

بحياةِ ما ضَمَّت عُرى الأَزْرارِ
بِذِمامِ ما في الحُبِّ من أسرارِ
بالحِجْرِ، بالحَجَرِ المُكَرَّمِ، بالصَّفا
بالبَيْتِ، بالأرْكانِ، بالأَسْتارِ
بِاللَّهِ إلاّ ما قَضَيْتَ لبُانَةً
تَقْضِي بها وَطَراً من الأوْطارِ
وتكفُّ من أشجانِ صَبٍّ يَشْتكي
جَوْرَ الزَّمانِ وقِلَّةَ الأنْصارِ

---

(١) ومطلع قصيدة ابن هانىء:

أَلَيلَتَنا إذا أرسَلْتِ وارِداً وَحْفا
وبِتنا نَرى الجوزاءَ في أُذنِها شَنْفا

(٢) الوافي في نظم القوافي ـ نسخة الرباط ص ٣٩.

بلّغْ لأنـدلسِ الـزّمـانِ وَصِفْ لـهـا
مـا بـي مـنَ آشـواقٍ وبُـعـدِ مـزارِ
وإذا مـرَرْت بـرُنـدَةٍ ذاتِ الـمُـنـى
والـرّاحِ والـزيّـتـون والأزهـارِ
سَـلّمْ عـلى تِـلكَ الـدّيـار وأهْلها
فـالـقـومُ قـومي والـدِّيـارُ ديـاري

وذكر الشاعر لنفسه قصيدة في كتابه روضة الأنس ونـزهة النَّفس[1] قالها بالعُدوة متشوّقاً إلى الأندلس والأهل والـوطن، يقول فيها:

يـانَسِيمـاً هبَّ من أنـدلسٍ	فتلقَّت طيبَهُ ريحُ النَّعـامى
مـا امْتَـرى نـاشِقُه لَمّا سَرَى	أنَّهُ فضَّ عن المسكِ الخِتاما
آهِ من شَوقي لقومٍ مـا جَرى	ذِكْرُهمْ إلا جَرى دَمْعِي سِجاما

وذكر الرُّندي خبر اجتماعه بالشيخ الفقيه أبي علي القصري بمدينة سبتة ومذاكرته إياه في ضروب من الآداب[2].

جوانبه واهتماماته:

تنوّعت جوانب الرُّندي واهتمـاماتـه، وتعددت. فهـو ـ كما ظهر من تراجمـه ومما تـرك من مؤلفات، ومـا وصل إلينـا من

(١) روضة الأنس: ١٧.
(٢) الوافي في نظم القوافي (النسخة التيمورية): ١٢٢.

أسماء بعض مؤلفاته الأخرى ـ كان أديباً، فقيهاً، مشاركاً. وامتدت اهتماماته لتشمل معظم جوانب الثقافة الأدبية والدينية لعصره. فقد كان شاعراً، وأديباً مؤلفاً، وناقداً. ومن جهة ثانية كان فقيهاً، محدّثاً فرضِيّاً، مقدَّماً في رجال القرن السابع المعدودين. فهو ـ على الرغم من تعدّد اتجاهاته، واتساع جوانبه ـ ذو مكانةٍ خاصة في معظم تلك الجوانب التي طرقها.

شخصية الرُّندي:

تجتمع لدى الدّارس من أخبار الرُّندي ومما يجده في كتبه صورة واضحة تقريباً لأخلاقه وتديّنه، ومكانته في عصره وعلاقاته بمعاصريه، واتجاهاته. وكانت الأوصاف التي أسبغها عليه ابنُ الزُّبير، وابنُ عبد الملك المراكشي، وابن الخَطيب كافية لإعطائه صورة الأديب الفقيه الشاعر، ذي المكانة المرموقة في عصره. ففي ترجمة ابن الزبير له أنه كان بالجملة معدوداً في أهل الخير، وذوي الفضل والدين. وعند بن عبد الملك أنه «كان خاتمة الأدباء بالأندلس، بارع التصرف في منظوم الكلام ومنثوره، فقيهاً، حافظاً، فَرَضيّاً مُتَفنّناً في معارف شتى، نبيل المنازع، متواضعاً، مقتصداً في أحواله».

وقد كان الرندي ممن يستطيع أن يُحسن الصلة بينه وبين أهل الفكر، وأصحاب الدولة من الأمراء الحكام والوزراء

المتنفذين، ومَن كان في ساحتهم. وساعده علمه وشاعريته على تقريبهم له واستنشادهم من شعره.

وهو جَمع إلى هذه الصفات الخلقية الطيبة ورعاً وتديناً ومراقبة تشهد بها تراجمه، وقطع باقية من أشعاره. فمن شعره في غرض التوحيد[1] قوله:

ما بالُنا نَغْتَرُّ بالأذهانِ ونغرُّها بمطالبِ البُرهانِ
ونقيسُ كي نَدْرِي لِكُلِّ عِلَّةً ونرومُ شيئاً ليسَ في الإمكانِ
ونرومُ مَعرفةَ الإلهِ وإنّما نَبغِي الكمال بغايةِ النُّقصانِ!
ونُريدُ نفهمُ سِرَّهُ في عالَمٍ لو شاءَ كان على نظامٍ ثانِ
ومن المحال تصوُّرُ الإنسانِ ما مُنِعَتْهُ قوّةُ عالَم الإنسانِ
ما في الوجودِ إذا أردتَ حقيقةً إلّا الإلهُ وكُلُّ شيءٍ فانِ

وله من قطعة أخرى:

أشارَ إليكَ جُميعُ الوجودِ بأنَّكَ أوجَدْتَهُ من عَدمْ
وقامَ بأمرِكَ من غيرِ شَيْءٍ ولولاكَ ياسيِّدي لم يَقُمْ[2]

صلته بدولة بني نصر:

سبق القَول إن الرُّندي وُلد في أوّل القرن السابع. فهو نشأ وشب في ظل أواخر دولة الموحدين، وشهد الاضطرابات

(١) روضة الأنس ونزهة النفس: ٥.

(٢) المصدر السابق: ٤.

المريعة التي مَرّت على الأندلس بعد هزيمة العقاب الشنيعة سنة ٦٠٩، وهلم جرّاً إلى أن استقر الحال بالأندلس في القسم الباقي تحت ظل بني نصر المعروفين ببني الأحمر في مملكة غرناطة. وكانت (رُندة) في جملة المدن الباقية.

ويظهر لي أن اتصال الرُّندي بالأمير النصري لم يكن قبل استقرار الأمور له بعد سنوات من الكفاح لوقف المد الخارجي الطامي.

وتدل القصائد الباقيات من شعره في بني نصر على أنه كان لهم بمثابة شاعر القصر ومناسباته المختلفة. فهو يهنىء بالأعياد والانتصارات، ويشارك في المواسم والمناسبات. وهو يرثي من يُتوفّى من الأسرة أيضاً.

وطرَّزَ الرُّندي كتابه (روضة الأنس ونزهة النفس) باسم الأمير النصري أبي عبد اللّه محمد بن نصر[1]. فهو الشاعرُ المعتمَدُ، والثقة الذي يسمحون له بالدخول إلى القصر الملكي ومتنزهاته، فقد ذكر في الإحاطة أن الأمير أدخله الحديقة الملحقة بالقصر وطلب إليه ألا يخرج منها قبل إتمام قصيدته في معارضة محمد بن هانىء الإلبيري[2].

---

(١) روضة الأنس: ١. والأظهر أنه قدمه للأمير محمد الأول.

(٢) الإحاطة (ترجمة الرندي).

وقد لَخّص لسان الدين بن الخطيب علاقته ببني نصر بقوله في الإحاطة إنه كان كثير الوفادة على غرناطة والتردد إليها يسترفد ملوكها وينشد أمراءها[1]. ويكون الرندي بهذا شاعر مديح، ومناسبات، اختص بالبيت النصري، فشهد عهد الأمير الأول محمد، وعهد ابنه من بعده محمد الفقيه إلى أن توفي في زمانه.

علاقته بأدباء عصره:

كان من الطبيعيّ لشاعرٍ - اتصل بالقصر اتصالاً مباشراً - ومؤلف متعداد المواهب، وناقد أدبي متصدر لهذا الفن؛ أن تكون له صِلاتٌ وثيقةٌ بعدد من أُدباء عصره، وتكون بينه وبينهم مراسلات وندوات ولقاءات. والمعلومات - على كل حال - عن هذه الناحية في تراجمه الباقية قليلة. غير أننا استفدنا الكثير من الأخبار والملاحظات الشخصية العارضة التي تلقى المطالع في كتابَيْ الرندي الباقيين: «الوافي في نظم القوافي»، و«روضة الأنس ونزهة النفس».

وحدثنا أبو جعفر بن الزبير المحدث المؤرخ الأديب أنه تكرر لقاؤه أبا الطيب الرندي بمالقة، وأنه سمع من أشعاره الكثير[2].

---

(١) الإحاطة (ترجمة الرندي).

(٢) الإحاطة - نقلاً عن صلة الصلة (ترجمة الرندي).

وطلب ابن عبد الملك المراكشي إجازته[1] فلبّى رغبته، وبعث بها إليه.

وكانت بينه وبين بعض أدباء غرناطة مسامرات وصلات ومناقشات. فمنها ما ذكره في الوافي[2]: «كتب إليّ صاحبنا الوزير الأديب أبو العباس بن بلال الجزيري رحمه اللّه:

ألـمِـمْ إذا شئـتَ تَـحْـظى ... بـصـالـحٍ وشَـرِيـفِ
بـصـالـحِ بـنِ يـزيـد بْـ ... ـنِ صـالـحِ بـنِ شـريفِ

فكتب إليه:

أهلاً ببِرّ سرّني وجَلا لي ... ما شئتَهُ من رفعةٍ وجَلالِ
حُسْنُ اطّرادٍ في قريضٍ باهرٍ ... نُظِمَتْ به الأسْماءُ نَظْمِ لآلِ

وله مراسلة شعرية أخرى مع الوزير الجزيري[3].

ونقل مختارات من أشعار أصحابه في الوافي، وعرّفنا بصداقته لهم وصلته بهم مثل الفقيه أبي الربيع بن حبيب، والفقيه أبي عمرو بن أبي العافية. كما ذكر أبا الحجّاج بن الشّيخ المالقي وابنه بما يوحي أنه يعرفهما معرفة مباشرة.

---

(١) المرجع السابق.
(٢) الوافي في نظم القوافي (النسخة التيمورية: ١٧).
(٣) المرجع السابق: ١٢٤.

وأوْرَد قطعةً لنفسِه، وعقّب بمعارضة معاصر له لتلك القطعة، وهو الكاتب أبو بكر النجّار الإشبيلي[1]. وتحدث عن مذاكرة بينه وبين بعض الإخوان[2] في قضايا أدبية ولكنه لم يسمّهم.

مؤلفاته:

بقيت - إلى أيامنا هذه - مجموعة من آثار الرندي، بينما نقف على أسماء مؤلفات وآثار أخرى لا ندري أفي الضائع هي لا رجعة له، أم أنها في بطون الخزائن. وكتبه التي نعرفها أو نعرف لها اسماً هي:

١ - الوافي في نظم القوافي. وهو كتاب نقدي جامع، منه نسخ في القاهرة والرباط وليدن وغيرها [يصدر في سلسلة دراسات أندلسية].

٢ - روضةُ الأنس ونزهة النفس، وهو كتاب ثقافة جامع شبيه بكتب المعارف العامة كعيون الأخبار والعقد وأشباهها. ومنه نسخة ناقصة في مكتبة خاصة بالمغرب.

٣ - ديوانُ شعر، وهو مفقود، منه نقول مبثوثة في كتبه، وفي كتب التراجم وتاريخ الأدب الأندلسي. قال ابن الزبير إن

---

(١) الوافي (نسخة الرباط ٣٣).

(٢) (المرجع السابق: ٣٤).

كلامه ـ نثراً ونظماً ـ مُدَوّن[1].

٤ ـ وله (مقامات). نعرف اسمها فقط، وهي من المفقود[2].

٥ ـ كتابٌ في الفرائض[3]. وقد شرحه الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن محمد القرشي البسطي الشهير بالقلصادي[4].

٦ ـ جزءٌ على حديث جبريل[5].

٧ ـ تأليفٌ في العروض[6].

٨ ـ قال ابن الزبير أيضاً «وله تصانيف أدبية وقصائد زهدية» وسنعرض للموجود من كتبه بالنقد والتعريف.

* * *

---

(١)، (٢)، (٣) نقلاً عن الإحاطة «ترجمة الرندي».

(٤) نفح الطيب ٢، ٦٩٤.

(٥)، (٦) الإحاطة «ترجمة الرندي».

الفصل الثالث

أدبُ الرندي

سبق القول في ترجمة الرندي إنه كان أديباً، شاعراً، ناقداً، مُشاركاً؛ له اهتمامات بعلوم شتى. وسنعرض في هذا الفصل لدراسة جوانبه التي اشتهر بها، ووصلت إلينا آثار له فيها، وهي: شعره، ونثره، وآراؤه النقدية، على وجه الخصوص.

•

الرُّندي شاعراً:

١ـ كانت الحركة الشعرية في القرن السابع الهجري استمراراً لما كان في القرن السابق عليه من النشاط، وغزارة الإنتاج، ووفرة الشعراء، وعلو الطبقة. واتسم الشعر بالنفس القوي والأفق المشرف؛ فهو لم ينحدر انحداراً مماثلاً لضعف الأحوال العامة في البلاد. وكانت الأندلس لا تزال تنجب الشعراء المتقدمين كابن الأَبار، وابن سَهْل الإشبيلي، وحازِم القَرْطاجَنّي، ممن وصلت إلينا دواوينهم الشعرية، ومثل أبي البقاء الرُّندي وابن سَعيد المغربي الأندلسي ممن وصل إلينا قدر صالح من أشعارهم.

وكان ما يزال في الأندلس ـ في أول القرن، وبعد استقرار الأمور لابن الأحمر في غرناطة ـ من يقدِّر الشعر، ويُثِيبُ عليه، ويشجع أصحابه. وكان بعض أولي الأمر من الخلفاء

والوزراء والحكام يقرضون الشعر قليلهُ وكثيره، ويشاركون في الحركة الأدبية.

وكانت هناك حوافز مختلفة بحسب اختلاف الظروف وتنوعها وتشعبها في هذا القرن الشديد الاضطراب تدفع بالشعراء إلى نظم الشعر وإيداعه ثمرات القرائح وخلجات العواطف؛ سواء أكان ذلك مما يخص الشعراء أنفسهم وفي حياتهم، أم كان يخص الأمة في أحوالها المضطربة وظروفها القاسية.

وقد كان عدد كبير من كتاب الأمراء يقرضون الشعر[١]، ويقدمونه بين يدي مخدوميهم، فكثر لهذا شعر المديح والمناسبات: وسيكون هذا ظاهرة بارزة في القرن التالي حين نجد رؤساء الكتاب جميعاً من الشعراء، وبعضهم يقف في الشعر على قدمين راسختين.

٢ ـ وبعد أن استقرت الأمور في غرناطة ـ وما حازوه من الأندلس في نطاقها ـ اتخذوا لأنفسهم رسوم الملك، وأُبَّهة السلطان، واتخذوا الكتاب والحجاب والوزراء. وكانت الدولة تنعم بين الفينة والأخرى بهدوء نسبي يسمح للأمراء النصريين بالالتفات إلى البنيان والعمران، والأخذ بأسباب

---

(١) راجع ثبت كتاب بني الأحمر ووزرائهم في اللمحة البدرية للسان الدين بن الخطيب «طبعة الشيخ محب الدين الخطيب» ـ القاهرة.

الحياة الملوكية. وكان لا بد لدولة ناشئة ـ كهذه ـ من أن تُفيد من الخبرات والمواهب التي نبتت في ظلالها. وهكذا حصلت الصلة بين الرُّندي وبين بني نَصر.

٣ ـ لا نجد بين أيدينا من باقي شعره ما يدلّ على اتصاله في مرحلة شبابه الأولى ببعض الأمراء من الموحدين ـ ومدّعي الخلافة ومنتحليها ـ أو ببعض الثوار والمنتزين في أرجاء الأندلس بعامة أو في رُندة بخاصة. فقد كان في نحو الخامسة والعشرين من عمره عندما قام محمد بن هُود بدعوته، وبايعته معظم أطراف الأندلس مدة من الزمن، وانقضت دعوته بوفاته وهو في الخامسة والثلاثين. وقد ولّى ابن هود على مدينة رندة سنة ٦٣٠ أديباً شاعراً هو أبو بكر بن عبد العزيز الشهير بابن صاحب الردّ. وكان له دور بارز في الخروج بعد ذلك في قرطبة وتعيين ابن عمه الباجي (٦٣٠ ـ ٦٣٢) مخالفاً لابن هود ومستقلاً بالأمر. وكانت سِنُّه بين العشرين والرابعة والعشرين حين احتدم الخلاف بين المتطلعين إلى الخلافة من الموحدين. فبعد مبايعة عبد الواحد (المخلوع) سنة ٦٢٠ بمراكش قام العادل بالأندلس. وبعد مدة يسيرة خرج أمير آخر هو المعروف بالبيَّاسي فدعا لنفسه وتحالف مع دول إسبانية، وكان يسلمهم البلاد والحصون، حتى قضى عليه أهل قرطبة ٦٢٤. ولكن أبا العلاء (المأمون) الموحدي قام ـ بعد سفر أخيه العادل إلى مراكش أميراً ـ فدعا لنفسه في الأندلس.

ونقل في (الوافي) أبياتاً في مدح الوزير أبي بكر بن أخيل لم يزد على أن قال فيه «من أهل بلدنا» يعني رُندة.

وقد أورد الرندي ذكر خليفتين من الموحدين بمناسبة تهنئة شاعر معاصر له للرشيد الموحدي في توليه الخلافة الموحدية بمراكش وتعزيته بوفاة والده المأمون، ولكنه حديث عارض لا يدل على علاقة تُستنتج بهم، قال: «ولم أر لأحدٍ متقدم أو متأخر (في اجتماع تهنئة وتعزية) كقول بعض أهل عصرنا يهنىء الرشيد بالولاية ويعزيه بأبيه المأمون:

هَنيئاً وإن كُنّا لحسنِ العَزا أوّلى
بملكِ الّذي اسْتَولْى وهُلكِ الذي وَلّى

وليس بين يدي ما يرجح صلته بالموحدين، صلة شاعر مادح بدولة مستقرة وأمير ممدوح.

وقد مرَّ في الفصل الأول أن ابن الأحمر قام سنة ٦٢٩ بدعوته وجاذب ابن هود أطراف البلاد حتى خلا له الجو بوفاته في المريَّة عند واليها من قبله ابن الرُّميمي.

وشعر الرندي الباقي يدل على اتصاله ببني الأحمر بعد مرحلة تكوين الدولة الجديدة، وتثبيت إطارها.

٤ ـ ويبرز الرُّندي في ظلال بني الأحمر شاعر بلاط، مداحاً، ذا صلة وثيقة بالدولة الفتية وأمرائها المحبين للشعر،

المتطلعين إلى قصائده فيهم، وأشعاره التي ينظمها في الأغراض الأخرى.

وهو شاعر مكثر، غزير الإنتاج، سهل العطاء، حاضر البديهة، وقد كان شعره مدوناً (مجموعاً في ديوان)، ولكننا لا نعرف إلى الآن في المكتبات المشهورة ديوان شعر له. وجوانب شعره متعددة، وأبرز أغراضه الشعرية: المديح، وشعر الغزل، والرثاء، ـ ومنه رثاء المدن والممالك ـ والوصف، والحكمة. وله مشاركة في أغراض شعرية أُخرى. وقد نبه ابن الزبير إلى إجادته في غرضي المدح والغزل، وهي ملاحظة دقيقة.

أغراض شعر الرُّندي:

● **المدح**: يبرز غرض المديح في شعره لوفرة إنتاجه فيه، وارتباطه مدة طويلة بالبلاط النصري. وهو يذكِّرنا بشعراء المديح التقليديين الذين أخلصوا الولاء لدولة من الدول، واستمرّوا على ذلك الولاء إلى أواخر حياتهم. فهو اتصل بالأمير النصري الأول محمد بن يوسف (ت ٦٧١) وبابنه محمد الفقيه (ت ٧٠١) هـ فمدحهما، وتردد على غرناطة طويلاً في عهدهما.

ويتناول شعر المديح عنده القيام بمهمة شاعر البلاط الذي لا يغادر مناسبة دون أن يقول فيها شعراً ملائماً؛ فهو رفع

قصائده إليهم في المناسبات، والأعياد والمواسم. واتصل غرض المديح ـ هنا ـ بما دعاه في كتابه الوافي: التهاني، حين أفرد له بابا مستقلاً. وتجد في شعره قصائد في تولية ابن الأمير ولاية العهد، وفي إعذار بعض أولادهم، وفي المديح عامة. وكأني بالشاعر يفد على غرناطة في أوقات ومواسم بأعيانها لا يدعها تفوته، إضافةً إلى وفاداته العارضة، واستدعاءات القصر لأغراض مختلفة.

وله قصيدة مطولة قالها معارضة لقصيدة المتنبي:

أَجَابَ دَمْعِي وما الدّاعِي سِوى طَللِ
دعَا فَلبَّاه قبلَ الخَيْلِ والإبِلِ

وقد أنشدَ الرُّندي قصيدَتَهُ «لمّا بويع بالحضرة النصرية بولاية العهد الأمير المعظم أمير المسملين أيده اللّهُ واقترن بذلك مولد ابنه الأمير المعظم أسعده اللّه...»[1] وقدم لها بمطلع غزلي رائق، ومن الغرض فيها:

يا يَوْمَ سَعْدٍ كأنّ العيد عادَ بهِ
فالنّاسُ في مَرحٍ والدَّهرُ في جَذَلِ
شاهَدْتُهُ فرأينا الأرْضَ قد بهرَتْ
والشّمس قد سترت وَجْهاً من الخَجلِ

---

(١) الوافي في نظم القوافي: ٣٧«النسخة التيموريه».

وللطُّبولِ بهِ خَفْقٌ يُساجلهُ

خفقُ البنودِ على الخَطِّيةِ الذُّبُلِ

وكلُّ أَشْوسَ ساجِي الطَّرْفِ من أدبٍ

يَهوي للثمِ يدٍ أَشْهى منَ الأَملِ

ويجتلي غُرّةً بالبِشْرِ مُشرقةً

كما تجلَّتْ إياةُ الشّمسِ في الحَمَلِ

فهو يصف المشهد وصفاً تفصيلياً يبين كيف احتفلت الدولة (رسمياً) بتولية الأمير ولاية العهد بين أصوات الطبول المجلجلة وخفق الرايات في أيدي حامليها في عرض بديع. وتستمرُّ القصيدة بعد ذلك ليشيد بالأمير العتيد، ويلتفت إلى والده (الحاكم) لإظهار مآثره وصفاته، وبيان عدله في الرعية، وجهاده في العدو، وتمكنه من السلطان، ووصف تعلق الناس به حاكماً ناجحاً. وفي آخر القصيدة:

ابن الهُمام الذي لَهُ حُليٌ حسنُت

بها الإمارةُ حُسْنَ المدحِ بالغزلِ

ومنْ لَهُ كَرمٌ رِيشَ الثنَّاءُ بهِ

فطارَ حتّى سَرى في الأرضِ كالمثلِ

وتجدُ في مدائحه المعاني المطروحة عادةً في هذا الغرض فإذا كان الوالد أسداً فالابن شبل، ويد الأمير بحر فياض عند الجود، وسيفه قاطع بتار مخْضب بالدماء في الحرب، ونسب

النصرين في بيوت الشرف العربية[1]. وكان الشاعر يجتهد دائماً في أن تكون شخصيته الشعرية ظاهرة على محورين: أحدهما في حسن صياغة العبارة، وثانيهما في جدة تناول المعاني والقدرة على الغوص وراء الصور المبتكرة.

وله من قصيدة مدحية يصف فيها جيش بني الأحمر، فيه الأمراء منهم يقودونه ويخوضون به المعركة:

وكَتِيبَةٍ بالدَّارعينَ كَثِيفةٍ
جَرَّتْ ذُيولَ الجَحْفَلِ الجَرّارِ
رَوضُ المنايا قضُبُها الشمسُ الَّتي
من فَوقِها الرَّاياتُ كالأزهارِ
فيها الكماةُ بَنُو الكُماةِ كأنهمْ
أُسْدُ الشَّرى بين القَنا الخطَّارِ
مُتَهلِّلين لدَى الهِياجِ كأنَّما
خُلقتْ وُجُوهُهُمُ منَ الأقمارِ
من كلِّ ليثٍ فوق بَرقٍ خاطِفٍ
بيمينِهِ قَدَرٌ من الأقْدارِ
من كُلِّ ماضٍ يَنْتَضيهِ مِثلهُ
فيَصُبُّ آجالاً على أعْمارِ

(١) الوافي في نظم القوافي: ٤٢ «النسخة التيمورية».

لبسُوا القلوبَ على الدُّروعِ وأسْرَعُوا
بأكفِّهم نارٌ لأهْلِ النَّارِ
وتقدَّموا ولهُمْ على أعدائهِمْ
حنقَ العِدىٰ، وحميَّةُ الأنصار

فالمعاني المدحية مما لا يستغربه القارىء أو يستجده دائماً، ولكن الانتباه يلتفت إلى الصياغة الجيدة، والصورة الجديدة، التي تعود بك إلى مدرسة ابن خفاجة التصويرية والتعبيرية.

وتجد الشاعر مقتدراً على الوصول إلى نفس المخاطب (من الممدوحين) وبلوغ ما يريد تبليغه من فكرة أو رأي أو طلب. وهو على كل حال يلحق بشعراء المديح الذين يقبلون الأعطيات والهدايا، وإن لم نجد له طلباً صريحاً للعطاء، ولكنك تجد مثل قوله:

إذا ما ضاقت الدُّنيا بِحُرٍّ كَفاهُ لثمُ كفِّك، والسلامُ!

أو قوله في قطعة أخرى:

ولئن رَجْوتُ فإنّ مِثلك يُرتَجىٰ
ولئن سألتُ فإنَّ مِثلكَ يُسألُ

فعلى الرغم مما يظهر من الروح التكسبية، فإنك تحس بأن الأمر يعدو هذا إلى أهداف أخرى كتثبيت المكانة

عندهم، والاحتفاظ بالوجاهة، وإبراز الشاعرية. . .

وقد أوتي الشاعر قدرة على حسن مخاطبة الأمراء، والممدوحين بعامة مما ينبىء عن شخصية شاعر متمكن، دمث، يحسن التأتي، ويعرف المداخل إلى الأمور والمخارج منها.

ولا بد ـ ونحن نستعرض شعر المديح عند الرُّندي ـ من أن نقف عند عدد من الملاحظات التي تبدو للدارس من خلال علاقة الشاعر بالممدوحين، ومن خلال شعر المديح نفسه في مقاصده، ومعانيه، وشكله؛ وما يتصل بذلك من أمور.

فالعلاقة بين الرندي وبين الأمراء النصريين ورجال دولتهم المعدودين تماثل ما نعرف من علاقات الشعراء بحكام الدول وأمراء المناطق فيما سبق عند المشارقة والأندلسيين، فالدولة في حاجة إلى الشاعر الذي يتحدث عنها ويذيع المآثر والمناقب ويقوم بدور «أجهزة الأعلام» وللشاعر مقاصده أيضاً.

ولا ننسى أن الرندي في تقرُّبه إلى النصريين ومدحه لهم كان يعكس اتجاهاً سياسياً لدى أهل مملكة غرناطة. فقد كان

استقـدام ابن الأحمر وتـأميره بـرغبـة من الأهـالي وعن رضى تام.

وتشيع في قصيدة الرُّندي المدحية معاني المديح المألـوفة في الشعـر العـربي، بـالإضـافـة إلى الجـوانب والإضـافـات الخاصة التي تلونها بلون أندلسي، غرناطي أحيـاناً. ومن أهم الأمور التي يطرحها شعر المديح مشكلة السلطة (وهي في يد بني نصـر برضـا الجمهـرة) وقضيـة العـدوّ (إذ حلهـا الأمـراء النصريون بالحرب حين الاقتضاء، والسلم - حين يكون ذلـك أجدى - بحسب نظره) يقول مثلاً:

وهُم منحُوا الجزيرةَ منْ حماهُمْ   جِـواراً لا يُـذمُّ ولا يُضـام
فمن حَـرْبٍ تشيبُ لها النّـواصي   ومن سِلْمٍ: تحيتـهُ سـلامُ!

وقضيـة الأهليـة لاستمـرار السلطة في الأسـرة النصـريـة: (ولاية العهد). بالإضافـة إلى ركائـز المديـح الأثيرة من كـرم المحتـد، والجـود، والبـأس في الحـرب، ونشـر العـدل في الرعية، إلى غير ذلك من معان.

ولا يحس قـارىء شعر المـديح عنـده بـأنـه يشبـه شـاعـراً متكسباً يتهاوى على مطامعه الشخصيـة كبعض صور التكسب عند عدد كبير من شعراء دول الطوائف. ويتصل بهـذا المعنى مـا تجده من اقتـراب شعر المـديـح من الإخـوانيـات اقتـرابـاً واضحاً. ولعل الخط الـواصل بين المـديح والإخـوانيات هـو

المنطقة الوسطى التي سماها (التّهاني) مما يخص المناسبات الشخصيـة، والاجتماعيـة المختلفة، كـالتهنئـة بـالإبـلال من مرض، أو العودة من سفر، أو الاحتفال بزواج. . . الخ. وقـد انتبـه الرنـدي في (الوافي) إلى أن هـذا الباب مُسْتَغْـرَقٌ عنـد الشعراء في خلال الأغـراض الأخرى. وكـان من الطبيعي ألا يفرده النقاد في رؤوس الأغراض الشعرية.

فمن ذلك «قوله في تهنئة بقدوم من سفر»:

يـا لـيلةَ الأنسِ كـم أَدْنَيـت من أَمَـلِ
أشهىٰ وأَعـذبَ من أمنٍ عـلى وَجَـلِ

وكـم تَعـلَّلتُ بـاللُّقيـا عـلى شَـغـفٍ
وفـي التـعلُّل مـا يَشفـي من الـعِـلَلِ

مـا زلتُ يبسُـطني وَجـدي ويقبضُـني
طـوراً ويَشفـعُ لي شـوقي إلى خَجلي

حتى بلغتُ مُنىً مـا كـنتُ أحسبُـهـا
ومِـن ألَـذّ المـنى حُـبٌّ بـلا عـذلِ

ولا كـيـومِ لـقـائـي لـلوزيـر أبـي
بكـرٍ وقـد عـادَ عَـوْدَ الحلي للعَـطلِ

لِلّـهِ مـن وافـدٍ سَـرَّت وفـادتـهُ
مبـارك السَّعي في حلٍ ومـرتحـلِ. . .

وقـد عرفنـا من أسماء الممـدوحين في شعره البـاقي لدينـا

مجمداً (الأول) والأمير محمداً الفقيه (الثاني) وأبا عمرو بن المرابط، وأبا بكر بن يحيى.

وقد جَعل الشاعر قصيدة المديح عرضة لأغراض أُخرى. فأكثرها يبدأ بالغزل، وهو يستغرق عادة قسماً هاماً من القصيدة. وقد يخرج في أثناء المديح، ولأدنى سبب، إلى استطالة وصفية تلائم الحال أو تتصل بمعنى من معاني المديح المطروحة. وكأن الشاعر بهذا يريد أن يخفف من حدة الخطابية، أو المباشرة، أو الاستغراق وراء الغرض المدحي.

وتُظهر لك القصيدة المدحية إعجاب الممدوحين بشاعرهم وثقتهم به؛ إذ يقترحون عليه معارضة شعراء يعينونهم، وقصائد يختارونها، من الشعراء الفحول والقصائد المشهورة. وهي تظهر من جهة أُخرى مقام الشاعر عند نفسه. فكثيراً ما كان يختم قصائده بذكر شاعريته وإتقانه صنعته، كقوله:

وخذ إليكَ حليّ فصَّلتها حُللاً
الفضل فيها لتلك المكرمات ولي!

وقوله في، من قصيدة أخرى:

خُذها إليكَ أبا بكر مهنئةً
أزهى من الحُسن في أبهى من الحللِ

عــذراء قد بــانَ فيها عُـذرِ حاسِــدهــا
إذ غــازلَ الــمــدحَ فيـهــا رِقَّــةُ الغــزلِ

وقد بقي غرض المديح ـ في أغراض الشعراء الأندلسيين ـ متقدماً في القرن السابع. وظهرت طبقة من الشعراء في القرن الثامن لا تقل مقدرة وأهمية، ممن يتوجه إليهم الحديث في مجال آخر إن شاء اللّه.

الغزل

تنبه معاصرو الرُّندي إلى أنه برع في غرض الغزل ـ بالإضافة إلى المدح ـ. وهي ملاحظة صحيحة، ويُحسُّ القارىء أن الشاعر يجوده ويسترسل فيه.

ويشغل الغزل حيزاً واسعاً في شعره، فهو أفرد له القصائد والمقطوعات، وجعله استهلالاً لبعض الأغراض الأخرى، وبخاصة منها المديح.

وأول ما يلاحظه قارىء شعره الغزلي أنه شاعرٌ مقتدر على تناول الموضوع، واسعُ الباع فيه، خبيرٌ بالمعاني الغزلية، مستحضر للألفاظ المناسبة الملائمة. ويعطيك شعره صدق المحب المدنف، والمجرب العارف، وتتعانق فيه العبارة الرشيقة الأنيقة مع المعاني اللطيفة الرقيقة، وتجتمع له حرارة شعراء البداوة الشفافة الساذجة إلى أناقة شعراء الحضارة الباذخة المترفة.

ولا يغيب عنك ـ وأنت تقرأ شعره هذا ـ ما فيه من لمسات إنسانية عميقة، وقدرة مكينة على التغلغل إلى الأعماق؛ في استشراف لما فيه واستشفاف دقيقين. ويلحق بذلك ما تشهده من قدرته على تصوير المواقف، سواء أطال في التعبير أم اجتزأ واختصر: فمن شعره الغزلي قوله:

قَطَّع قلبي بصدِّهِ قِطَعا — وإنّما ضرَّني وما انتفعا
وغَرَّني أوّلاً بوَصْلته — وعندما لَذَّ وصلُهُ قطعا
ومَرَّ عنِّي لمّا شكوتُ له — كأنهُ ما رأى وما سَمِعا!
واكَبِدي! لو تُفيد (واكبدي) — لم يَترُك الدهرُ فيه لي طمَعا
يا ليتَ قلبي الذي وَهبتُ لهُ — يَرْجِعُ لي اليومَ كيفَما رَجعا!

والشعر الغزلي الذي بين أيدينا من تراثه يوحي بأنه غزل يمكن أن يوصف بأنه (عام). ذلك أنك لا تجد فيه امرأة بعينها أو اسماً مقصوداً. ولكن هذا لا يُغَيِّبُ الإحساس بصدق التجربة وأصالة الشاعرية.

ولا تكاد تجد للشاعر قصيدة غزلية يخلص فيها الحديث للغزل وحده، فإنه سرعان ما يخرج عن الموضوع الأصيل إلى موضوعات جانبية أخرى، تتّصل لا شك بروح القصيدة وتشتبك مع مقصدها، ولكنها تشعرك بأن القصد الغزلي في القصيدة مشوب بتطريزات جانبية تلطف من حرارته، وتظلل نصاعته.

والموضوعات الجانبية التي تُداخل الغزل، هي من نوع مُشاكل، مُساعف. كالوصف بعامة، أو وصف الخمرة بخاصة. وقد يكون الخروج عن الغزل إلى الوصف مقصوداً، لهدف آخر هام عنده، هو الوصلُ بين أجزاء القصيدة وغرض المديح كما في قصيدته المدحية:

أَلثامٌ شَفَّ عن وَرْدٍ ندِ   أم غَمامٌ ضحكتْ عن بَرَدِ
أمْ على الأزْهارِ من حُلّتها   بَدْرُ تمٍّ في قَضيبٍ أملدِ
بأبي لِينٌ لهُ لو أنَّهُ   نُقِلتْ عطفَتُهُ للخَلدِ
ولا وَألحاظٍ لهَا ساحِرةٍ   نفثَتْ في القَلْب لا في العُقَدِ
لا طلَبْتُ الثَّأر منها ظالماً   وأنا القَاتلُ نفسِي بيَدي
نظرتْ عيْني لِحَيني نظرَةً   أخذتْ رُوحي وخلّت جَسَدِي

ثم يخرج إلى وصف الخمرة:

هاتِها باللّهِ في مَرضاتها   قهوةً فيها شفاءُ الكَمدِ
عُصِرت باللُّطف في عَصْر الصّبا   فرمتْ بالمسكِ لا بالزَّبَدِ
ما دَرى مُديرُها في كاسِها   - وهي مثلُ البارقِ المتَّقدِ -
دُرَّةٌ ضُمَّت على ياقوتةٍ   أم لجينٌ فيه ذوبُ عسجدي
سَقِّني غيرَ مُليمٍ ياقوتةٍ   حَنَفيُّ الرأيِ والمُعتقَد!
لا أرى بالسُّكر إلا مِنْ هوىً   أو هِباتِ الملكِ المؤيَّدِ...

فهو يمزج في الغزل بين وصف المحبوبة، وذكر الأشواق

إليها، والمكابدة من (ظلمهاَ). ويخرج إلى ذكر الخمرة بقصد (الشفاء) مما يعاني. ويستطرد في حديثها إلى أن يصل إلى المقصود الرئيسي من كل ذلك في الدخول (الحسن) إلى الممدوح. والأبيات متماسكة متداخلة، والأغراض متساوقة منسجمة فيما بنيها. أما العبارة فتشيع فيها الرقة، والأناقة. ولا يغيب عن الأذن الموسيقى التي تلف القصيدة وتعطيها طابعاً مميزاً.

وإذا عدنا إلى حديث (حرارة) الغزل وجدنا أن هناك أسباباً أخرى تُطامن من الغزل الصَّاخب الذي تبدأ به قصائده الغزليات، وتميل إلى الهدوء شيئاً فشيئاً حتى تستوي عند حد معين. ولكن هذا يؤدي بالقارىء إلى الإحساس بأن الشاعر يُتقن شعر الغزل، ويُزَيّنه. وأن شعر الغزل هذا يعبر عن (حَنين) الشاعر إلى صَبوات الماضي (البعيد أو القريب) أكثر مما يعبر عن فوران داخلي آنِيّ. وقد يُخَيّل إليه أحياناً أن (الفن) أغلب من أي عنصر آخر. ولكن الشاعر في شعره الغزلي يعبر - باستمرار - عن خلجات الإنسان ونوازعه العميقة بيسر، وبمعرفة خبير.

فمن قصائده الغزلية التي لم يصلها بمدح قوله:

عَلّلاني بذكرِ تلكَ الليالي وعُهودٍ عَهِدْتُها كالـلآلي
لستُ أنسى للحُب ليلةَ أُنسٍ صالَ فيها على النَّوى بالوصالِ

غَفلَ الـدَّهـرُ والـرقيبُ وبِتنـا فَعجِبنـا من اتفـاقِ المُحـالِ
ضمنـا ضمَّة الـوشـاحِ عنـاقٌ بِـيمـينٍ مـعقُـودةٍ بـشـمـالِ
فبـرَدْتُ الحشَا بلثْمٍ بـرودٍ[1] لم يزل بي حتّى خبا لي خَبالي
وكؤوسُ المُدام تجلو عَروسـاً أضحك المزجُ ثغرها عن لآلِ
وبنحـر الدُّجـا ذوابِـلُ شمـعٍ عكست في الزُّجاج نور الذُّبالِ
والثـرُيـا تمـدُّ كفـاً خَضيبـاً أعجمَت بالسماك نون الهلالِ
وكـأن الصَّبـاح إذ لاح سيفٌ يُنتضى من غيـن وميـم ودالِ
ومسَحنـا الكرى إلى غـانياتٍ غـانِيـاتٍ بكـل سحـر حـلالِ
في ريـاضٍ تبسَّمَ الزهـرُ فيها لِغَمـامٍ بـكَتْ دمــوعَ دلالِ
وجَـرى عـاطِـرُ النَّسيم عليـلاً يَتهـادىٰ بين الصَّبـا والشَّمـالِ
فـاكتسىٰ النَّهْرُ لأمـةً منـهُ لمَّـا أنْ رَمى القَـطْرُ نحـوهُ بِنبـالِ
يـا ليـالي مُنىً سَـلامٌ عليهـا أتُـراهـا تَعُـودُ تلك اللَّيـالي؟!

فبعـد أن ذكر الشـاعر ليـاليه المـاضية، واستـرجـع أيـامـه الخــوالي استـطرد ـ لأدنى سبب ـ إلى مجـلس ضمـه مـع الحبيب، وخرج إلى ما لابس المجلـس، والتفت إلى الطبيعة حـوله في الأرض والسمـاء، ولـولا البيت الأخيـر الـذي لفت الـذهن إلى المـوضـوع الأصلي ووصـل أولـه بـآخـره لكـان استغــراق الـوصف أغلب على الأبيــات. وعلى الــرغم من

(١) البـرُود: كل مـا بَردَ بـه شيءٌ كالشّـراب يبرد بـه العطش والكحـل تبرد بـه العين. وحديث الشاعر هنا عن الثغر.

السلاسة، والتناسق بين الشكل والمضمون فإن اصطناع الشاعر لعدد من ضروب التنميق البلاغي والتحسين اللفظي ملاحظ واضح. وهو اصطناع يدل على يدٍ ماهرةٍ؛ تخفي ما يرافقه عادة (وعند الشعراء المتأخرين) من آثار جانبية على سلامة المعنى ونصاعة التعبير. وقد تغلب الصنعة على بعض النصوص فتؤثر على حرارة العاطفة؛ ولكن هذا في شعره الغزلي قليل.

وللمقطوعات الشّعرية الغزلية «موقف» خاص، فهو يعبر فيها عن موقف نفسيٍّ تبلور في صيغة مختصرة. ولعل المقطوعة عنده أكثر قدرة على التعبير عن حقيقة مشاعره وخلجاته من مقدمات القصائد المطولة؛ كما في قوله من مقطوعة:

يا سالبَ القَلب مِنِّي عِندَما رَمَقا
لم يُبْقِ حُبّكَ لي صَبْراً ولا رمَقا
لا تَسْألِ اليومَ عمَّا كابدَتْ كِبدي
ليتَ الفِراقَ وليتَ الحُبَّ ما خُلقا
ما باخْتياريَ ذُقْتُ الحُبَّ ثانيةً
وإنَّما جارَتِ الأقْدارُ فاتَّفَقا
وكنتُ في كَلَفِي الدَّاعي إلى تلَفِي
مِثْلَ الفَراشِ أَحَبَّ النَّار فاحْترقا

يـا مـنْ تَجلَّى إلى سِـرّي فَصيَّـرني
دَكّـاً، وهَـزَّ فُؤادي عنـدمـا صَعِقـا
اُنْـظُر إلـيَّ فـإنَّ الـنـفسَ قـد تـلفـتْ
وارفُقْ عَليَّ فـإن الـروُّحَ قـد زَهِقـا!

ولا يخفى ما في الأبيات من الموقف العاطفي العميق، والتعبير الجميل الذي ابتعد عن الصنعة المغرقة وإن لم يبتعد عن الأناقة والاختيار. أضف إلى ذلك ما في تلوين أسلوب الخطاب من تأثير في النفس وقدرة على الإقناع بالموقف.

ويبقى (الغَزل) من أهم الأغراض الدالة على شاعرية الرُّندي، وشعره، في روحه وأساليبه، وإبداعه الفني.

الوصف:

يشيع موضوع الوصف في شعر الرندي، فهو يلوّن قصائده المطوّلات، ويستقلّ بقصائد خاصة، وينفرد بمقطَّعات غير مطوّلة أيضاً. وقد اهتم الشاعر بهذا الموضوع، وأحلَّه منزلة هامة في القصيدة. وقد سبَق أن قصيدته المطوّلة التقليدية (وخصوصاً في المديح) كانت تتناول الغزل والوصف والغرض الأصلي أو المنظور إليه أساساً.

وهكذا يكون (الوصف) مناسباً للمقام المطروح فيه، فهو في أثناء القصائد يقدم أوصافاً ملائمة، جارية مع نسقها، أو

مستطردة ـ لأدنى ملابسة ـ بينما نجده في المقطّعات أكثر حرية في تناول الموضوع الذي يحب. ويكثر ـ في المقطعات ـ أن يكون الوصف لأشياء تتصل بأمور الحياة، وما هو في متناول الشاعر القريب.

أما وصف الطبيعة الأندلسية ـ والغرناطية بخاصة ـ فأمر يشيع في شعره كله: في المطوّلات وفي المقطَّعات. ويتبع ذلك ما كان من وصف الأزهار، والثمار، والخمرة، وضروب الرياحين المختلفة. ويلاحظ قارىء كتابه (الوافي) أن اختيارات المؤلف من أشعار معاصريه في وصف الطبيعة كثيرة فاشية. وهذا يفسر ما نذهب إليه من تفشي المدرسة الخفاجية في وصف الطبيعة، ومن انتشار طريقته في التصوير والتعبير أيضاً[1].

فمن شعر الوصفي قوله يصف الليل وجملة أمور مناسبة:

وَلَيْلَةٍ نَبَّهْتُ أَجْفانَها
والفجْرُ قدْ فَجَّر ضوَء النَّهارْ

واللَّيْلُ كالمهزومِ يَوْمَ الوغى
والشُّهْب مثلُ الشُّهبِ عند الفِرارْ

لذاكَ ما شابَتْ نَواصِي الدُّجا
وطارحَ الصُّبحُ أخاهُ فطَارْ

(١) الوافي في نظم القوافي «النسخة التيمورية»: ص ٧٥ ـ ٧٦ مثلاً.

وفـي الـثُّـريـا قـمَـرٌ سـافِـرٌ
عـن غُـرّةٍ غـيَّـر فـيـهـا الـسِّـفـارْ
كـأنَّ عُـنـقـوداً بـهِ مـائـلٌ
إذ صـارَ كـالعُـرجـونِ عنـدَ السِّـرارْ[1]
كـأنـمـا تـسـبِـكُ ديـنـاره
وكـفُّـهـا تـفـتـلُ مـنـه سـوارْ
كـأنـمـا الـصُّـبـح لِـمـشـتـاقـهِ
عـزُّ غِـنـى مـن بـعـد ذُل افـتِـقـارْ
كـأنـمـا الـشَّـمسُ وقـد أشـرقـتْ
وجـهُ أبـي بـكـر بـن يـحـيـى أنـارْ!

فالوصف هو الوجه الأصلي المستفاد من الأبيات، ولكن الشاعر استغله في البيت الأخير - في قدرة على الاستفادة - في موضوع المديح.

وتكثر الأوصاف في شعره لتتناول صغير الأشياء وكبيرها، في تلفت الشاعر المدقق الذي ينظر فيما حوله بعيني مصور. متردداً بين وصف الأمور التي سُبق إلى وصفها ومحاولة الوقوع على أشياء لم يُسبق إليها، والأكثر أن يعرض للطبيعة، وما يراه حوله من أمور.

(١) العُرجون من النخل كالعنقود من العنب. والسّرار. آخر ليلة في الشهر (القمري).

فهو وصفَ الجيش الجرّار والسفينة. كما وصف الطبيعة، سواء في رسم المناظر العامة، أم في الإكباب على الاهتمامات الصغيرة المركزة كالنرجس والحَبَق والتفاح، وغير ذلك من أزهار وثمار.

قال في وصف السُّفن في البحر:

سفائن تسبحُ في لُجَّة كأنّها صَوافِنٌ[1] تلعَبُ
من أدهمٍ تهفو شراع به كأنَّ صُبحاً [دونه] غَيْهبُ
إذا جَرى من خلفِه مُلحماً فلاحقٌ لعتقِه ينسبُ
وأشهبٍ صُوِّرمن عنبر وأين منه العَنبر الأشهبُ
وأسحمٍ يدعى غراباً وما ينعقُ بالبَين ولا ينعبُ

وهو ـ على الرغم من تناوله معطيات حضارية بيئية ـ لم يخرج في عمله الوصفي عن إسباغ صفات مألوفة في الشعر العربي لوصف الخيل وغيرها. فكأن العملية الشعرية تعتمد على (تركيب) ما يخص الفرس والغراب بما يناسب وصف السفن وهذا يخفف من نصاعة العمل الفني ويذهب بالكثير من جدته.

والوصف من الأغراض التي تظهر فيها العملية الشعرية

(١) الصافن: الفرس إذا قام على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة وقصد الشاعر مطلق الخيل.
ـ والغراب (في البيت الخامس) نوع من السفن الصغيرة.

عند الرندي بوضوح، سواء أكان ذلك في المقطعات الصغيرة أم كان في القصائد المطولة. وهو يعتمد على «التشبيه» اعتماداً كبيراً، ويخيل إليك أحياناً أنه يُسرف في التشبيهات إسرافاً، ويتبع ذلك ـ ويُماثله ـ اعتماده على الاستعارة بأنواعها. ونجد في تطلبه للمعنى الغريب، وتصيُّده للصورة المبتكرة، وفي إعادة تكوينه لبعض الصور القديمة مشابه كبيرة تقرّبه إلى مدرسة ابن خفاجة في المذهب الفني بعامّة، وفي غرض الوصف بخاصة. وله من قصيدة يصف الليل:

كأن البَدْر تحت الغيم وجه عليه من مَلاحَته لثامُ
كأنّ الكوكبَ الدُّريَّ كأسٌ وقد رقَّ الزجاجَةُ والمُدامُ
كأن سطورَ أفلاكِ الدَّرارِي قسِيٌّ والرُّجومُ لها سِهامُ
كأنَّ مَدارَ قُطب بنات نعْشٍ نَدِيٌّ والنجومُ بهِ نِدامُ

وهو يأخذ من المعاني القديمة والصور التي سبق إليها الشعراء في محاولة تجديد مستمرة، أو يعتمد منهج بعض الوصافين المتقدمين أحياناً؛ ولا يغيب عن ذهن القارىء أن شيئاً من طريقة ابن المعتز قد تسرَّب إلى عدد من مقطوعاته القصيرة التي زخرت فيها التشبيهات بألوان الحضارة والألفاظ المتعلقة بالترف والجواهر وما إلى ذلك كقوله:

وجدْولٍ كُلّما مرّ النَّسِيمُ بهِ كَساه دِرْعاً لها حَبابهُ حلقُ
حتى إذا انطبَعتْ ليلاً به شُهبٌ لم تَمْتَرِ العَيْنُ فيهِ أنّهُ الأُفُقُ

وكقوله ـ مما تلمح فيه شيئاً من طريقة ابن المعتز ـ

أمـا تَـرى حُسْن هـلالِ الأفقِ كالتّاج أو كالقَوْس أو كالزَّوْرَقِ
أو خَطّ نـونٍ بـمـدادٍ ذهـبِ مُتَـرْجَمٍ على زُجـاجٍ أزْرقِ

ويظل الإكثار من (التشبيه) في القصيدة بعـامة، وازدحـامه في البيت الواحد أمراً مطلوباً عنده مـرغوبـاً، كقولـه في تشبيه سبعة بسبعة:

وصفـراءَ لـونِ التّبْـرِ قـاسَمْتُهـا الهَـوى
إذا مـا بكيـتُ الحـبّ ليـلاً بـكتْ مَـعِي
كَـمِثْـليَ في سُـقمـي ولَـوْني وحُـرْقَـتِـي
وصَبْـرِي وتَسْـهِيـدي وصَـمْتِـي وأدْمُعِـي

ويـظهر في شعـره الرنـدي الوصفي أثـر العمل والصنعـة؛ وعنصـر المنافسـة ـ مع المعـاصرين ـ في الإجـادة ومحـاولـة التفوق.

الرثاء:

أفرد الرندي في كتاب «الوافي» باباً خاصـاً لغرض الـرثاء؛ واستغله ـ كعادته في الأغـراض الأخرى ـ في إيـراد نماذج من شعره في الرثاء تعد أبرز ما بين أيدينا منـه. ونجد شعـره هذا في قسمين، القسم الأول منـه خـاص أُسَـرِيّ، رثى فيـه من

اتصال به من المتوفين من الآقارب، والقسم الثاني يتعلق برثاء بعض من اتصل بهم بسبب.

وفي الأول رثاؤه في ابن له (اسمه محمد وكنيته أبو بكر) وفي والده، وفي زوجته. وفي الثاني رثاؤه في الأمير النصري محمد (الأول) وفي مَنْ دعاه أبا بكر، ولعله الوزير أبو بكر بن يحيى الذي كان من ممدوحيه.

وتتخذ قصيدة الرثاء عنده منهجاً متقارباً، فهو يضمنها في العادة أموراً أربعة. أحدها: معان حِكَمية عامة في الدنيا، والحياة والموت، والفناء والخلود وأن كل شيء هالك إلا الله سبحانه وتعالى. والثاني: ذكر مآثر المتوفي وصور من حياته. والثالث التوجع والتفجع وأثر المصاب في نفس الشاعر. والرابع: التصبر والتعزي وما يلحق بذلك.

وتختلف المواقف النفسية بحسب اختلاف المرثي، فتجد في رثاء الأقارب حرارة اللوعة، وذوب النفس، ونضح العبارة عن مكنونات الشاعر ومشاعره. وتحس في رثائه للأمير محمد بارتفاع صوت الباكي دون أن تحس بانسكاب الدمعة. وينتقل الشاعر في القصيدة الرثائية من حاضره إلى ماض سابق كانت فيه للمرثي مآثر ومفاخر، وهو يطيل الوقوف عند الماضي مُستنجداً به لإثراء الحديث عن الحاضر. فمن شعره الرثائي قوله من قصيدة يرثي بها زوجته:

يـا بُـرْهـةً كـانَ فيهـا للمُنى أَمَـلُ
ونُـزْهـةً للهَـوى والسَّمْـعِ والبَـصَـرِ
مَضَتْ مُضيّ الصّبـا عـني ولا عِـوَضٌ
ومَنْ يَقُـومُ مـقـامَ الشَّمْسِ والقَـمـرِ
عَهْـدي بـألفَـتِنـا والأنسُ ينـظِمُنـا
بـطيبـةِ العَيْش نـظمَ السِّلكِ للدُّرَرِ
رُوحَين في جَسـدٍ، سِـرَّين في خَـلَدٍ
كمـا تَقـابـلَ أَهـلُ الخُلدِ في السُّـرُرِ
حتى رَمىٰ البَيْنُ شـخصَيْنـا فـفـرَّقنـا
كـمـا تَـفَـرَّق بـيـن الـعَـيْـنِ والـنَّـظرِ
يـالَيْتَنِي عنـدَمـا حُمَّ الحِمـامُ، كمـا
قـاسَمْتُهـا كَبِـدي، قـاسَمْتُهـا عُمُـري
فـإن تكنْ زهـرة من روضِهـا قُـطِفَتْ
فـقـلمـا تُـمْـتِـعُ الأيـامُ بـالـزُّهـرِ
وإن تـكن دُرّةً مـن سلكـهـا خُـطفت
فـالدَّهْـرُ أَدْرَى بـمـا يَسْبِـي مـن الدُّرَرِ
يـا قلبُ صَبْـراً على مـاقـد فُجِعتَ بـه
فـلسْتَ فـي دفـع مَقْـدُورٍ بـمـقـتـدرِ
لا تَـبْـكِ فَقْـدَ حَـبيـبٍ أنت تـابِـعُـهُ
إذا مضىٰ البَعْضُ فـالبَـاقي على الأثـرِ!

فهو تذكَّر زوجته ـ كما ترى ـ وتذكر أيامها الخوالي يوم أن كان الدهر مُساعفاً، حتى جاء الفِراق الأخير الذي لا لقاء بعده، وتفجَّع وتوجع وفدّى، وذكر بعض مآثرها، ثم خلص إلى العزاء والصبر، في كلام مشوب بالحكمة. وللشاعر قصيدة أخرى في رثاء زوجته[1].

وفي رثاء ابنه أبي بكر تحسّ بحرارة اللوعة منذ البيت الأول، ويتكرر اسم ابنه (محمد) وكنيته (أبو بكر) ممّا يزيد في أثر القصيدة، ويعمقه، كقوله:

بُنيّ أبا بكرٍ، بُنَيّ أبا بَكْرِ
وماذا عسىٰ يُغني التعلّل بالذِّكْرِ
ذَهْبتَ ذهابَ الصَّبْر عَنّيَ مُكْرَهاً
فواأسفي ألّا لِقاء إلى الحَشْرِ
فإن كُنْتَ نجماً راغَ منه أُفولُهُ
فَمَا لكَ لا تبدو مع الأنْجُمِ الزُّهرِ؟
وإن كُنْتَ زَهْراً جَفّ إذ أخلفَ الحيَا
فما لكَ لا تَحْيىٰ ودَمْعِيَ كالقَطْرِ

ويخرج الشاعر بعد أبيات أخرى في وصف أثر فقده في

---

(١) أورد قصيدة عينية في النسخة المغربية (الرباط) في موضع القصيدة الرائية من النسخة التيمورية.

نفسه، وشجاه من مصابه إلى التغني باسمه مرة أخرى، في تكرار مؤثر:

مـحمّـدُ مـا أَشْـجىٰ فِـراقَـكَ لَـوْعَـةً
محمـدُ مـا أذهـىٰ مُصـابَـك مـن أَمْـرِ

مـحمّـدُ فـي قَلْبِـي محـمّـدُ في فَـمِـي
لئن غـابَ عن عَيْني فما غـابَ عن فِكْرِي

وعنصر التسليم بقضاء اللّهٰ والإذعان لمشيئته بارزٌ دائماً في قصائده الرثائية. وهذا وإن كان من الأحكام الإسلامية العامة، فإنه مرتبط بشخصية الشاعر ذات الجوانب الفقهية الدينية الواضحة.

وفي رثاء الأمير النصري محمد ـ التي بعث بها إلى الأمير الجديد من بلده رُندة ـ جمع الشاعر إلى رثائه المديح، فهي قصيدة محبوكة الطرفين بالغَرضين؛ العزاء بالمتوفى والاستقبال للحاكم الجديد. أما معاني الرثاء فيه فتدور حول شخصيته وخصاله وما قد سبق منه من أفعال عظام، وحول ما كان لوفاته عند الناس من أثر، فمن هذه القصيدة:

يـا حسـرة الـدين والـدُّنيـا على مَلِك
قـد كـان حسبَهُمـا لـو مُـدَّ في الأجـل

أصَـابـهُ مـن وراء الـحُـجـبِ صـائـبـة
إنَّ المَنُـونَ لأرمـىٰ مـن بَـني ثُـعَـلِ

وزوال المُلكَ دهراً ثم فارقَهُ
وزال عنهُ وذاكَ الفخرُ لم يَزل

ومنها:

أصبحت فينا على حكم الردى خبراً
فكنت كالضيف أو كالطَّيْفِ والمَثلِ
كأن وجهك لم يُشرِق لناظره
كالبدر في السعد أو كالشمس في الحَملِ
كأن كفَّك لم تُبسَط لآملِها
يوماً ولا عرضَتْ للجُود والقُبَل

وعلى الرغم من وجود معان مشتركة في قصائد الرثاء، ومنهج عام ينتظمها لديه عادة، فإن لكل قصيدة عنده جواً خاصاً بها، ومعاني فرعية تنت مع المناسبة، لتناسب الظرف.

أغراض أخرى:

شارك الرُّندي في أغراضٍ شعريّة أُخرى؛ مشاركةً جانبيّة، لم تكن من أصل اهتماماته، كالحكمة والهجاء.

أما الحِكمة فقد كانت تَرِدُ في شعره في أثناء الأغراض الأخرى في مُناسباتِ الفَواجع وقصائد الرثاء، أو في لحظات الاعتبار والزهد بالحياة الفانية. وأكثر ما نجده منها في قصائد

الرثاء كرثائه لبلاده الضائعة، ورثاء زوجته. وتبعاً لهذا فإن أهمّ ما يلتفت إليه شعره الحِكَميّ يتعلق بالحياة والموت، وتفاهة الدنيا، وحتمية الرُّجوع إلى اللّه. ويأنس الشاعر في أثناء ذلك بزوال مُلك الملوك وامّحاء سلطان المتنفذين وسَرَيان حكم الموت على كل حي:

إذا كان أمرُ اللّه للمرءِ طالِباً
فقدْ هانَ مطلوبٌ وقد عَزَّ طالبُ
ألا إنما الدُّنيا خَيالٌ وأهلُها
بها عَرَضٌ والدهرُ بالكُلّ لاعِبُ...

ويسترسل الشاعر في وصف الدنيا الزائلة - فالقابض عليها لا يلوي على شيء - ويصل إلى مخاطبة (البطّال) الذي تغره الدنيا فينسى الحقيقة:

ألا أيُّها البطّالُ كم أنتَ غافلٌ
كأنك عن هذي المشارب غائبُ
ألا فانْظُر الدُّنيا بعينٍ بَصيرةٍ
فللتَّركِ يا مغرورُ ما أنتَ كاسبُ!
ألم تَرَ أنّ الموتَ أكبرُ شاهدٍ
على أنَّهُ لا يَغْلِبُ اللّهَ غالِبُ؟

وهو يركّز على زوال العز عمن يظن الناس دوام العز لهم

كالملوك وأضرابهم، ويضربُ الأمثال بهم:

أينَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ومَا
شادُوه من أثَرٍ شَدُّوهُ بالأثَرِ
وأين ما حَجَبُوهُ في مقاصِرهِمْ
من أوجُهٍ زُهُرٍ كالأنجُمِ الزُّهُرِ..

وهذه الأبيات تذكرنا بأبيات مشابهة في المعنى والمغزى وردت في قصيدته «لِكلّ شيءٍ إذا ما تَمَّ نُقصان» في رثاء ما سقط من بلدانِ الأندلس واستنهاض الهمم لاسترجاعها.

وحكمته دائماً مستخلصة من عبر الحياة، وأكثرها يصدر عنه في مجال الموت، والفناء، والخراب، وتنضح عن نفس مؤمنة متشرّبة بالقَناعة الدّينية. وهو بعيدٌ جداً عن أية معانٍ فلسفية غريبة.

● وله أبياتٌ قليلة أوردَها في معرِض حديثه عن غَرض الهجاء لا تجعلهُ من أهل هذا الباب، وإنّما هي المُناسبة العارضة أو المشاركة في الدعابة العابثة، ولم نعرف في ترجمته وأخباره ما يدل على خصومات له ظاهرة أو عداوات أكيدة، بل غلب على صورته لدينا الفضل والأناة ورجاحة العقل. ومن هجائه الذي أورده لنفسه في أثناء استعراضه لأشعارهم في الثقلاء قوله:

تـزلـزلتِ الأرضُ زلـزالَهـا   فقلتُ لسكـانها: مـالهـا؟

فقـالـوا أتـانـا أبـو خـالـدٍ   فـأخـرجت الأرض أثقـالهـا!

والهجاء من أقل أغراض الشاعر، ولا نظنـه غرضـاً اكترث به في حياته.

الجهاديات وشعر رثاء البلاد الاسلامية المغلوبة

١ - ظهر في الأندلس ضربٌ من الشعر - والنثر أيضاً - كان صدى مباشراً، وغير مباشر، لأحداث الحرب الدائرة بين المسلمين في الأندلس وخصومهم من الدول الإسبانية. وهو أدبٌ يهدف إلى تصوير نكبة الأندلسيّين بفقدان أجزاء من بلادهم، وتحريض القوم على الصمود ومواصلة القتال، وهو يدعو المسلمين من بَرِّ العُدوة وما وراءه لإنقاذ الأندلس، والمشاركة في الجهاد المفروض. وقد تجتمع هذه العناصر في القصيدة الواحدة، أو يُكتفىٰ ببعضها.

وجذورُ هٰذا الضَّرب من الشعر قديمة قِدَم حركة الاستغلاب نفسها، ولكنه صار غرضاً بارزاً منذ عهد الفِرَق (الطوائف) التي انتشرت حُمَّى دويلاتها في الأندلس في القرن الخامس الهجري حيث اشتدت عليهم وطأة حركة الاستغلاب وسقطت مدينة طليطلة المنيعة. ووجَد المفكّرون والمثقّفون والمُخلصون من أهل الأندلس أنفسهم في موقف المسؤولية؛ فهَبُّوا من علماء وفقهاء وأدباء ومخلصين للقضيّة يشاركون في الحملة المضادة قولاً وعملاً. وكَثُر التحذير من أخطارِ التفرق، والاستنامةِ عن الجهاد، ومَغَبّة التخاذل والتقاعس. وبرز التحريض على الجهاد والقتال وحمل السلاح لاسترداد ما ضاع والدفاع عما بقي. واتخذ الأدب

المتعلق بهذا الغرض اتجاهين كبيرين (تتفرع منهما أمور كثيرة) هما:

١ ـ الدعوة إلى الجهاد، ومواصلة الكفاح.

٢ ـ بكاء ما ضاع من بلاد المسلمين.

وزاد هذا الغرض نشاطاً واشتعالاً عددٌ من الأسباب المتضافرة المتداخلة. فمنها تقلُّص ظلّ الرقعة الأندلسية، بعد ضعف الموحدين، شيئاً فشيئاً. وإحساسُ الأندلسيّ أن الدائرة المحيطة به تضيق وتختنق؛ وشكلُ حرب الاستغلاب وطابعها المشابه لما كان في المشرق آنذاك[1].

ومنها القسوةُ العارمة والعدوان الطاغي على الناس، على اختلاف أعمارهم وأنواعهم.

ومنها عدمُ احترام المواثيق ـ على الأغلب ـ وقلب معطيات الثقافة الإسلامية.

ومنها رُوح الاستشهاد التي كانت تضجّ في صدور الأندلسيين، وتنفجر في صدور العلماء والفقهاء وذوي المكانة من رجال الأندلس.

ومنها ارتباطُ الأندلسي بأرضه ارتباطاً قوياً، وشعوره بالواجب الجهادي المُلقى على عاتقه.

---

(١) راجع في هذا الكتاب (الحياة السياسية) من الفصل الأول.

٢ ـ ويقف الدارس على تيارات ثلاثة من شعر رثاء البلدان في الأندلس. أحدها: رثاء المدن الضائعة مما سقط في يد العدو، مما سبق الإلماع إليه في الفقرة السابقة. والتيار الثاني رثاءُ الدول الأندلسيّة الزائلة في أثناء الحكم العربي الإسلامي للأندلس؛ وهي الدُّوَيْلاتُ التي قامت بعد سقوط الدَّولة المروانية؛ وأشهر تلك الدول التي رثاها الشعراء دولة بني عَبّاد أصحاب إشبيلية، ودولة بني الأفطس أصحاب بطليوس. والتيار الثالث هو شعر رثاء المدن التي كانت عامرة فخربت بظروف سياسية أو اجتماعية كالشعر المقول في خراب قُرطبة بعد الفتنة البربرية، وخراب إلبِيْرَةَ بعد هَجْر أهلها لها ونبوغِ مدينةِ غَرْناطة.

ويتوجّهُ الذهن عند الحديث عن رثاء الأندلس إلى أصحاب التيار الأول من الشعراء، لأنهم هم الأكثر عدداً، والأشهر شعراً، وشعرهم هو المقصود بالدَّرجة الأولى[1].

٣ ـ كان الحديث عن الحروب بين الأندلسيين وخصومهم يقع في أثناء قصائد المديح كما نجد ذلك بوضوح في ديوان ابن دَرّاج القسطلي الذي سجل حروب الحاجب المنصور تسجيلاً رائعاً.

ويبدأ تيار رثاء المدن والحصون الضائعة عنيفاً غزيراً منذ

(١) راجع كتابنا «سقوط الأندلس: في التاريخ والأدب».

سقوط طُلَيْلَة سنة ٤٧٩ هـ. ومما بقي من أشعارهم في ذلك أبيات لابن العَسَّال الزّاهد، وقصيدة مطولة لشاعر مجهول أوردها المقري في نفح الطيب، منها:

لِثكلكِ كَيْفَ تبتَسِمُ الثُّغورُ سُروراً بعدما سُبيتْ ثغورُ
طليطلةٌ أباحَ الكفرُ منها حِماها إنَّ ذا نبأٌ كبيرُ
فليسَ مثالَها إيوانُ كسرى ولا مِنْها الخورنَقُ والسَّدِيْرُ

ووقف الشُّعراء عند نكبةِ بلنسية وشرق الأندلس حين سقطت في يد السِّيْد كما صَنع ابنُ خَفاجة[1] في أواخر القرن الخامس. ثم استراح الأندلسيون إلى عهد القوة والتمكن في أيام المرابطين، وصدراً من دولة الموحدين؛ فلما تهافتت قوة هؤلاء ثم تهاوت دولتهم بدأ عهد استغلاب إسباني - برتغالي جديدٍ عارِم، فعادَ غرضُ الجهادِيّات ورثاءِ المُدن الأندلسية غزيراً نشيطاً؛ وقامَ الأدب بدوره وأدّى الأدباء مهمتهم. ويبرز في هذه المدة أبو البقاء الرُّندي، وابنُ سهل الإشبيلي، وابنُ الأبَّار، وأبو المُطَرِّف بن عَمِيْرَة المَخْزُومي وغيرهم.

وفي ديوان ابن سهل الإشبيلي قصيدة أنشأها بطلب من أمير إشبيلية أبي عبد اللّه الموحدي لِحَثّ عرب المعقل على القدوم إلى الأندلس من شمال إفريقية والجهاد فيها، منها:

---

(١) راجع: ابن خفاجة، من سلسلة (الذخائر ١) للمؤلف.

وِرْداً فمضمُونٌ نجاحُ المُصْدِرِ
هِيَ عِزَّةُ الدُّنيا وفَوْزُ المَحْشَرِ
نادىٰ الجِهادُ بكمْ لِنَصْرٍ مُضمَرِ
يبدُو لكمْ بينَ العِتاقِ الضُّمَّرِ
أنتم أحقُّ بنصْرِ دينِ نبيّكُمْ
وبكمْ تمهَّدَ في قَديمِ الأعْصُرِ[1]

واستنجد ابن مَردنيش بالأمير الحفصي صاحب تونس، وبعث كاتبه ووزيره ابن الأبار، فأنشد قصيدة في مدحه والاستنجاد به، واستنفاره للجهاد، منها:

أدرِكْ بخيلك خيلِ اللّه أندَلُسَا
إنّ السَّبيلَ إلى منَجاتِها دَرَسا
وهَبْ لهَا من عَزيزِ النَّصرِ ما التَمستْ
فلم يزلْ منكَ عِزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسَا[2]

وشهد ابن عيمرة المخزومي سقوط بَلَنْسِيةَ وجزيرة شُقْر، ومدن الشرق الأندلسي سقوطاً نهائياً، فذكر ذلك في شعره وكرَّر التأسف، والتحسر، واستنهاض الهم. فمن شعره في سقوط بلنسية:

---

(١) ديوان ابن سهل الإشبيلي (بيروت) ١٤٠.
(٢) راجع مختارات من الشعر الأندلسي (للمؤلف): ١٤٢.

مـــا بـــالُ دمـــعـــكَ لا يـنـــي مِـــدرارُهُ
أم مـــا لِـقـلبـــك لا يَـقِـــرُّ قَـــرارُه. . .
بـحـــرٌ مـن الأحـــزانِ عَـــبَّ عُـبـــابُــه
وارتـــجَّ مـــا بـــينَ الـــحَـشـــا زخَّـــارُه
فـي كـــلِّ قـلبٍ مـــنـــهُ وجـــدٌ عـنـــدهُ
أسـفٌ طـــويـــلٌ لـيسَ تـــخـبُـــو نـــارهُ
أمَّـــا بَـلـنـسـيـــةٌ فَـمـشْـوىً كـــافِـــرٍ
حـــفَّـتْ بـــهِ فـــي عُـقْـــرِهـــا كُـــفَّـــارهُ

والشعراء كثر، والشعر غزير.

٤ ـ كان الرُّنـدي واحداً من أدبـاء القرن السـابع، وشهـد تهاوي المجد الأندلسي منذ بِدايات هذا القرن. وتأثر كما تأثـر معـاصِرُوه من الأدبـاء والشعـراء. ونحن نعـرف لـه قصيـدتـه المطولة.

* لِكُلِّ شَيْءٍ إذا ما تَمَّ نُقْصَانُ *

ومن المحتمـل أن يكون في شعـره الضائـع قصائـد أخرى في الغرض.

وقـد أسلفنا في الفصـل الأول أن صاحب كتـاب الذخيـرة السنيـة ذكر القصيـدة وقال إن الـرنـدي أنشـدهـا بعـد سلسلة التنازلات من قبل ابن الأحمر لألفونسو ملك قشتالة سنة ٦٦٥،

ويظهر أن التنازلات الإسلامية ـ تحت الضغوط القاسية ـ كانت فادحة، واختلفت الروايات في تقديرها، ولكنها زادت عن أربعين مُسَوَّرة من مدينة وحصن وما شابه ـ وهذا رقم مرتفع جداً.

ونقَل القصيدة ـ من بعد ـ المَقَّري في كتابيه أزهار الرياض، ونفح الطيب. وذكر أن زياداتٍ قد طرأت على القصيدة ـ بعد بسقوط الأندلس نهائياً ـ ليست من أصلها. ويسلم للرندي ٤٣ ثلاثة وأربعون بيتاً رواها أيضاً في الذخيرة السنية[١].

وتمضي قصيدة الرندي في ثلاثة اتجاهات.

١ ـ الاعتبار بزوال الدول وموت الملوك والعظماء والتأسي بهم فلكلٍّ أجل محتوم.

٢ ـ تصوير سقوط المدن الأندلسية في يد العدو، وما حل بأهل الأندلس من مصائب ونكبات.

٣ ـ الدعوة إلى الجهاد، والاستنجاد بأهل بر العُدوة. وفي القصيدة دعوة ظاهرة للاستنجاد بدولة بني مرين[٢]. وكان ابن

---

(١) انظر في تحقيق النص والدراسات حوله «مختارات من الشعر الأندلسي د. محمد رضوان الداية ـ دمشق» ص ١٥٠ ـ ١٦٠.

(٢) وكان الأمير المريني الحاكم في هذا الوقت: يعقوب بن عبد الحق، وهو من مشهوريهم وشجعانهم (انظر الذخيرة السنية: ٨٥).

الأحمر قد اقتنع ـ بعد الضغط القشتالي على الخصوص ـ بضرورة الالتجاء إلى الدولة المرينية الفتية، وأن يخفف من مخاوفه من استيلائهم على بلاده أو فرض شيء من سلطانهم. وزاد اقتناعه ـ مع الأندلسيين ـ بهذا الرأي بعد نجدة بني مرين سنة ٦٦٢ والتي أدت إلى هزيمة النصارى الإسبان. وهذا مستفاد من قوله في القصيدة:

يا أيُّها المَلِكُ البَيْضَاءُ رايتُه
أدرِكْ بسيفِكَ أهلِ الكُفْرِ لا كانُوا
يا راكبينَ عِتاقَ الخَيْلِ ضامِرَةً
كأنّها في مَجالِ السَّبْقِ عُقبانُ
وحاملينَ سُيوفَ الهِنْدِ مُرْهَفَةً
كأنّها في ظَلامِ النَّقْعِ نيرانُ
وراتعينَ وراءَ البحرِ في دَعَةٍ
لهُمْ بأوطانِهِمْ عِزٌّ وسُلطانُ
أعندكمْ نَبأٌ منْ أهلِ أندَلُسٍ؟!
... فقدْ سَرى بحديثِ القَوْمِ رُكبانُ

وتعد هذه الأبيات ـ وهي عنوان القصيدة ـ في جملة الحملة التي تولى القيام بها الفقهاء العاملون والأدباء والشعراء الذين تحملوا مسؤولية الإعلام. وكان هدفهم تحريض بني مرين وقبائل المغرب بعامة على الجهاد، وإنقاذ الباقي من

الأندلس والإثخان في أرض العدو. وتخرج الصرخة مدوية في وجه أصحاب الشأن الأعلى في غرناطة وفاس - وإن كانت لهجة الخطاب عامة - في قوله من القصيدة:

ماذا التَّقاطعُ في الإسلامِ بَيْنكمُ
وأنتمُ يا عبادَ اللّهِ إخْوانُ
ألا نُفوسٌ أبيَّات لها هِمَمٌ
أما على الخير أنصارٌ وأعْوانُ؟

وتتوزع الأفكار الجزئية في القصيدة على النحو التالي ١ - ٥ : كلّ شيء إلى زوال، وحكم الدهر جار على مَنْ في هذه الدنيا، ٦ - ١٢ الاعتبار بالملوك والدول السالفة في التاريخ، ١٢ - ١٤ نقلة من الكلام العام عن نكبات الدهر، وتمهيد للدخول في موضوع (جزيرة) الأندلس، ١٥ - ١٧ بداية الحديث عن نكبة الأندلس، ١٨ - ٢٧ ذكر المدن الكبرى التي سقطت في يد العدو، وتحسُّر على ما أصابها، ٢٨ - ٣٥ الاستنجاد بملوك بني مَرِين وقبائل المغرب عامة والاستنصار بهم، ٣٦ - ٤٣ تصوير نكبة الأندلسيين ومأساتهم الدامية.

وتسيطر على القصيدة العاطفة الجامحة، ويَشيع فيها صدقُ التأثّر وحرارة الانفعال وروعة الحماسة الدّينية والوطنية.

ولغةُ الشّاعر في القصيدة بسيطة معبرة، والألفاظُ الأساسيةُ

في التعبير من العبارات الموحية الدالة ذات الأثر المباشر. ولا شك في أن الشاعر انشغل بتصوير الواقع القاسي وبالحماسةِ الجامحة، والعبارة المُجَلْجِلة عن التّنميق البديعي - وكان سمةً من سِماتِ العصر - وابتعدَ عن الإسراف في التصوير، أو القصد إليه.

والقصيدة تجمع بين الوصف السردي والروح الانفعالية؛ والعلاقة بين هذَين الطرفين علاقة وثيقة.

ويقف الدارس في أثناء القصيدة على بعض الحِكَم، وهي مما استنتجه الشاعر من الأحداث، أو استأثر به من قناعة بالحتمية:

يمزّقُ الدهرُ حَتْماً كلَّ سابِغَةٍ إذا نَبَتْ مَشْرَفيّاتٌ وخُرْصَانُ

ولكن الشاعر جعل من قناعته بهذه الحتمية وسيلة لتبرير الانهيار الأندلسي، ولعله ورّى بذلك عن الإشارة إلى أي أحد باعتباره السبب في هذا الانهيار.

وتعد قصيدة الرندي في أشهر قصائد الأندلسيين في الجهاديات ورثاء المدن الأندلسية الضائعة لما فيها من صدق الانفعال، وحرارة التّعبير، ولأنه استطاع بوصفه الدامي للحوادث الجارية على الأندلسيين أن يحرك العواطف ويشد الانتباه. وهو - بعدُ - استطاعَ أن يضع قضية الأندلس في إطارها، حين جعل مصيبة أي جزء من أجزاء الأمة مصيبة

عامة لا خاصة، ورأى أن الجهاد لاسترداد السَّليب من الـوطن فــرضَ عين لازماً لا يَسْقُط التّكليفُ بــه على أيّ حــالٍ من الأحوال.

ومن خلال ذلك الوصف لِما أصـاب الأندلس، ومن أثنـاء الحض على الجهاد والقتال تبدو العاطفة الحزينة، ويظهر لك الشاعر الباكي الذي كاد ييأس لولا الأمل البعيـد الذي يتشبث به، ويرجوه:

تبكي الحنيـفيّــة الـبيـضــاءُ من أسَـفٍ
كـمــا بكـىٰ لِفــراقِ الإلْـفِ هَـيْـمــانُ
عـلى ديــارٍ مـن الإســلام خــالــيــةٍ
قـد أُسلمتْ ولهـا بـالكُفـر عُمْـرانُ...
لمثــلِ هــذا يــذوبُ القلبُ من كَمــدٍ
إنْ كــانَ فـي القـلبِ إســلامٌ وإيمــانُ

دراسة في شعر الرندي

وقع شعر الرندي في نفوس معاصريه موقع القبول، وتلقوه تلقياً حسناً. وأثنى النقاد على شعره وشاعريته. فقال ابن عبد الملك المراكشي إنه كان خاتمة الأدباء بالأندلس، بارع التصرف في منظوم الكلام ومنثوره[1]. وقال لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة عنه: وشعره كثير، سهل المأخذ، عذب اللفظ؛ وهو غير مؤثر للجزالة[2]. وتحدث عنه بعض المعاصرين في معرض شعر الجهاديات ورثاء البلدان الإسلامية الضائعة، أو في تقويم كتابه النقدي (الوافي). فمنهم غارثيا غومز في كتابه الشعر الأندلسي[3]. وبلانثيا في تاريخ الفكر الأندلسي[4] والأستاذ عبد الله كنون في مقالة بمجلة معهد الدراسات العربية في مدريد[5]. والدكتور إحسان عباس في تاريخ النقد[6]. وتجد دراستين عنه في

---

(١) نقلاً عن ترجمة الرندي في (الإحاطة) القسم المخطوط.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الشعر الأندلسي ـ ترجمة د. حسين مؤنس ٦١ ـ ٦٢.

(٤) تاريخ الفكر الأندلسي ـ ترجمة د. حسين مؤنس ١٣١ ـ ١٣٢.

(٥) مجلة معهد الدراسات العربية ـ مدريد.

(٦) تاريخ النقد الأدبي ـ د. إحسان عباس.

تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ومختارات من الشعر الأندلسي[1].

ويظهر من شعر الرندي الباقي أنه طرق الأغراض الشعرية التقليدية، وأكثرَ من المدح والغزل كما تقدم. أما الجهاديات ورثاء المدن فقد كان غرضاً بارزاً في العصر ذاته. وكانت للشاعر مُثلٌ يحب أن يحتذيها كمعارضته لبعض قصائد المتنبي. وكان يمتثل لبعض رغبات الممدوحين في معارضة قصائد بأعيانها - أحياناً - كمعارضته لقصيدة ابن هانىء الفائية:

ألـيـلَتَـنـا إذ أرسـلتْ وارِداً وَحْـفـا
وبتْنا نَرى الجَوْزاءَ في أُذْنِها شَنْفا

بقصيدته التي مطلعها:

* أواصِلَتي يَوْماً وهاجِرَتي أَلْفاً[2] *

ويعدُّ الرُّندي استمراراً لحركة الأدب العربي التي لم تخمد جذوتُها في الأندلس. وهو يمثل طبقة من الشعراء استمروا على نفسٍ عال في صياغة الشعر، وجلاء في الفكرة ونصاعة

---

(١) مختارات من الشعر الأندلسي (دراسات أندلسية ٣) - وتاريخ النقد الأدبي في الأندلس (دراسات أندلسية ١) للدكتور محمد رضوان الداية.

(٢) من ترجمة الرندي في الإحاطة.

في العبارة، وغوص على المعنى الطريف والصورة الغريبة، وأناقة في الديباجة، وسلاسةٍ وقرب مأخذ.

وهو ألحّ على طلب الصورة في ملاحقة واستجلاب، وأعجب بعنصر التشبيه وأكثر منه إكثاراً يلفت النظر. وتجده يرصف في عدد من قصائده ضروباً من التشبيه رصفاً متلاحقاً؛ كقوله من قصيدة:

وليلٍ صَبابةٍ كالليلِ طُولاً تنكَّر لي وعَرفَهُ التَّمامُ
كأنَّ سماءَهُ روضٌ تجلّى بزهرِ الزّهرِ، والشَّرقُ الكِمامُ
كأنَّ البدرَ تحت الغيمِ وجهٌ عليهِ من مَلاحَتِه لِثامُ
كأنَّ الكوكَب الدُّرِّي كأسٌ وقد رَقَّ الزُّجَاجَةُ والمُدامُ
كأنَّ سُطور أفلاكِ الدَّراري قِسِيٌّ والرُّجومُ لها سِهامُ
كأنَّ مدارَ قُطبِ بناتِ نَعْشٍ نَدِيٌّ والنُّجومُ بها نِدامُ

ويظهر للدارس إعجاب الشاعر بمدرسة ابن خفاجة، ومجاراتها في كثير من قصائده ومقطوعاته. وهو التجأ إلى الطبيعة، وتعايش معها، ومزج بين الحديث عنها وعدد كبير من أغراضه الأخرى. ووصل في بعض أوصافه للطبيعة إلى الامتزاج بها والتجاوب معها.

وفي شعر الرندي سلاسة وموسيقية ظاهرة. فهو عُني بالعبارة، وانتقى الكلمة، ولاءم بين أجزاء الكلام. وبث في

قصائده موسيقا داخلية أكسبتها تلويناً صوتياً خاصاً. وهو اعتمد أيضاً ـ في الوصول إلى مطلبه هذا ـ على شيء؛ يقل حيناً ويكثر أحياناً، من التوازن والتقسيم والتصريع والترصيع، وانظر قوله من قصيدة:

أيا أضلعا، حرُّها، يلهبُ ويا أدمعاً، درها، ينهبُ
عجيبٌ لعَمْرُكَ شأن الهَوىٰ ولكنّ صبري له أعجَبُ

وتجد الشاعر مقتدراً على الملاءمة بين البحور والأغراض التي يعالجها.

ويشعر الدارس أنَّ الصنعة اللفظية وضروب البديع قد سقطت إلى شعر الرندي، ولكنها لم تنتقص من أصالة شاعريته، ولا كانت حاجزاً أمام المعنى، ولا بهرجاً ثقيلاً على كاهل العمل الشعري. ولعل الشاعر استفاد من البديع في التلوين الصوتي، والتزيين اللفظي دون أن يصاب شعره بتصلب الإطار وتجمد المعنى. والرندي معجب بالطباق، والجناس أداتين أساسيتين من صنوف البديع، إضافة إلى ضروب منه أخرى مثل لزوم ما لا يلزم، والتوازن، والتقسيم، وحسن الخروج والتخلص... كقوله من أبيات:

يا سالبَ القَلْبِ مِنّي عندَما رَمقا
لم يُبْقِ حُبُّكَ لِي صَبْراً ولا رَمقا

لا تسـأل اليـومَ عَمّـا كـابـدتْ كَبِـدي
لـيتَ الـفـراقَ وليَـتْ الحُـبَّ مـا خُلِقـا
وكـنتُ فـي كَلفـي الـدَّاعـي إلـى تَـلِفـي
مثـلَ الفَـراشِ أحبَّ النّـارَ فـاحتَـرقـا

ومن قصيدة أخرى:

ولـيـلة نـبـهـتُ أجـفـانَـهـا والفجـرُ قد فَجَّـر نهـرَ النَّهـارْ
والليل كالمهزومِ يوم الـوغى والشُّهْبُ مثلُ الشُّهب عندَ الفِرارْ
كـأنمّا استَخْفىٰ السُّهـا خِيفـة وطُـولب النَّجْمُ بـثـارٍ فثـارْ
لذاكَ ما شابَتْ نَواصِي الـدُّجا وطـارَح النَّسْـرُ أخـاهُ فَـطارْ

وقد لا يكون من المبالغة أن نعد الرنـدي ممثلاً للنفـر من أهـل عصره الـذين أشربـوا بحب الصنعة اللفـظية والضـروب البـديعية، وشعـرهم ـ مع ذلـك كله ـ يحتفظ بـروائـه ورونقـه وأصالته.

ونحن حين نجـد الشـاعـر مُعرِضـاً عن المـوشَّحـات والأزجال ـ إذ لم يقع لنا من ذلك شيء، ولم يخبرنا في كتابه النقدي به ـ نلقاه مهتماً بأمور تـزيينية شكليـة شاع بعضهـا في عصـره، وتفنن هو بعـرض أمور لم يمثـل لها من شعـر غيره. وهـو ارتـاد القصيـدة (المـطولـة) والمقـطوعـة، واستخـدم الرباعيات أو (المربعة) كما سماها.

فمن مربعاته قوله:

كـمْ دُعينـا لِغَيْرِكُمْ فـأبَيْنـا
وضـحكتـمْ تَـدلُّـلاً فـبكَـينـا
يـا قُسـاةَ القُلوبِ رِفْقـاً عَـلَيْنـا
مـا خُلِقْنا بينَ الأنـامِ حَـديـدا

● ● ●

يـا قُـدودَ الغُصـونِ عنـدَ التَّثَنِّي
مـا لكمْ في عَـذابنـا بـالتَّجَنِّي
قـد قَنِعْنـا حتى نَسِينـا التَّمَـنِّي
وخَضعنـا حتى بَسطنـا الخُدودَا

● ● ●

وعقد الرندي في (الوافي) باباً بعنوان «التفصيل» وتعريفه: «أن يقسم الشعر لقسمين أو أكثر في مواضع متوازية في أبياته، فإذا فصل منها قسم من كل بيت عما قبله، كان الباقي تام الوزن والمعنى. وينفك بذلك من القطعات ما تقتضيه صنعة ذلك. فمما ينفك منه أربع قطعات قولي:

يـا قَضِيبـاً، مُنَعَّمـاً يـا غـزالاً، مُهَفْهَفـا
زارَ يـومـاً، وقـد وفى مستـرقّـاً، لـمَّـا جَفَـا
صِـلْ مُحِبّاً، ومُغْـرَماً ومُـعَـنَّـى، ومُـدنَفـا

ذابَ وجْـداً، مُضَعَّـفـا ووُجــوداً، فـأتْـلَفـا

وذلـك أن كل بيت منهـا ينقسم إلى أربعـة أجـزاء مـوازنـة لأجزاء عروضها. فإذا أضفت الجـزء الأول من كل بيت منهـا إلى مـا شئت من أجزائـه كان من ذلـك ثلاث قـطعـات. وإذا أسقـطت الجزء الآخـر من كل بيت منهـا كـان البـاقي قـطعـة رابعة»[1].

ومن التفنن الشكلي إنشاء قصائـد ومقطوعـات، تُقرأ بعـدة قوافٍ. وقد عقد في الوافي بابـاً تحت عنـوان (التبديـل) وهو يقتضي تبـديل التـرتيب، أو تبـديـل القـافيـة[2]. وقـد يكـون التبديل في الروي فحسب.

فمما ينشد بثلاث قواف قوله:

دَعْنِي وإنْ قِيْـلَ الجنونُ فنـونُ فـالصبُّ مثلي بالهَـوىٰ مَفْتُونُ
[مقلوبُ * مفؤودُ]

بأبي الذي أشكو هَواهُ وصـدَّهُ والصدُّ صعْبٌ والهَوىٰ تَهـوينُ
[تعذيبُ * تنكيدُ]

كتبَ الجمالُ بلحـظِهِ في خَدِّه والخطُّ في حِسنِ الخدود يزينُ
[عجيبُ * يَزيدُ]

---

(1) الوافي (النسخة التيمورية): ١٢٦.

(2) الوافي (نسخة الرباط: ٣٩).

ومن تبديل الروي ما يتردد بين اللام والراء قوله:

قال الخليُّ: براك الحبُّ، قلتُ: بَلى
وكم أجبتُ خليّاً عندمَا عَذَلا * عَذَرا
أرَيْتُه في الهَوىٰ من قِصَّتي عَجَباً
دَمْعاً إذا اشتعلتْ نارُ الحَشا انْهَملا * انْهَمَرا

ومما تفنن فيه الشاعر «التطريز» وهو إنشاد قصيدة، إذا جمعت أوائل الحروف من رأس كل بيت اجتمع من ذلك عبارة مقصودة أو اسم لممدوح، أو لمحبوب متغزَّل به الخ. كقصيدته:

ما عُدة المُلْكِ إلا السَّيْفُ والقَلمُ ولا السّيادَةُ إلاّ الجودُ والكرم[1]

وهكذا نجد الشاعر مهتماً في كتابه النّقدي (الوافي) بالضُّروب البَدِيعية التي وصلت إلى عصره، ففصل فيها وضرب لها الأمثلة، وساقَ نماذج صنَعها على مِنوالها. وأظن أن شعره لم ينطبع بهذه الصبغة البديعية انطباعاً شديداً، ولكنّ الشاعر اكتفى بالأخذِ منها على قدر ما يتزين شعره دون أن يلتزمه مذهباً دائماً.

وهو بعدُ شاعرٌ يملك القدرة على جذب الأسْماعِ بشعرِه الرَّقيق، السلس المنتقى العبارة، ويستطيعُ أن يمد في

(١) الوافي (النسخة التيمورية): ٦٥.

القصيدة بِنَفَسٍ مُقتدر طويل. وهو من جهةٍ أُخرى موصول اليد والصنعة بالتّراث العربيّ الأصيل. وهو في معانَيه المستجدّة وصُورِهِ الجميلة نهبٌ بين محاولة التجديد الابتكارية، وإعادة صِياغة المعاني العربية السابقة في ثوب جديد. فمن معانيه اللطيفة التي تجمع بين النهجين:

وجدولٍ كُلّما مَرَّ النّسيمُ به   كساهُ درعاً لها حَبابهُ حَلَقُ
حتّى إذا انطبعتْ ليلاً به شهبٌ   لم تمترِ العَيْن فيهِ أنه الأُفق

وقوله ـ ولا يغيب عنك نهج ابن المعتز ـ

أما ترى حُسن هلالِ الأفَقِ   كالتّاج أو كالقَوْسِ أو كالزُّورَقِ
أو خَطّ نون بمدادٍ ذهب   مُتَرجَمٍ على زُجاجٍ أَزْرَقِ

ومن جملة صلته بالتراث الأصيل استلهامه النفحات النجدية والحجازية، كما في قصيدته[1].

سلِّم على الحيِّ بذاتِ العَرارْ   وحَيِّ من أجلِ الحبيب الدّيارْ
وخَلِّ مَنْ لامَ على حبهم   فما على العشّاقِ في الحُبِّ عارْ

---

(١) القصيدة في نفح الطيب ٤ : ٤٨٩ .

الرندي ناقداً

اتسم عصر الرندي - كما سلف - بالتحرك والنشاط في مجالات العلوم والآداب والفنون. وعلى الرغم من الاضطراب وحال الفوضى التي وسمت جوانب كثيرة من مناحي الحياة فإن وجود تلك النشاطات كان واضحاً بيِّناً. وكما وجدنا للشعر حركة وحياة فقد كان للنقد الأدبي في القرن السابع للشعر حركة وحياة فقد كان للنقد الأدبي في القرن السابع وجود وكان للنقاد مكان. ويظهر أمامنا عدد من النقاد مثل الشَّقُندي (٦٢٩) وابن دِحية الكلبي (٦٣٣) وابن سعيد (٦٨٥) وحازم القرطاجني (٦٨٤) والرندي (٢٨٥).

الوافي في نظم القوافي:

وصل إلينا كتاب الرندي النقدي وهو «الوافي في نظم القوافي» ومنه نسخ في مواضع متفرقة. وقد صنعه الشاعر ليكون في جملة الكتب النقدية الأندلسية التي تهدف إلى إعطاء فكرة كافية عن هذا الفن، وتقدم للقارىء معلومات كافية عن صنعة الشعر ومحاسنه وعيوبه وأغراضه وما يستحب أن يكون فيه من ضروب البيان والبديع الخ.. وقد قال في المقدمة: «وقد أفردت في كتابي هذا جملة كافية في صنة الشعر لمن أحب أن يأخذ بأزراره ويطلع على أسراره ويتفنن في بديعه، ويتبين سقطه من رفيعه..».

وجعل الرندي كتابه في أربعة أجزاء. وقسم الجزأين الأولين إلى أبواب بينما اقتصر في الجزأين الأخيرين على موضوعين رئيسيين. وفي الجزء الأول أربعة أبواب، أحدها: في فضل الشعر ومن تكلم به وأثاب عليه. والثاني: في الشعراء وطبقاتهم، والثالث: في عمل الشعر وآدابه، والرابع في أغراض الشعر وآدابه.

والجزء الثاني من الكتاب في محاسن الشعر وبديعه ومعانيه، وهو أربعون باباً.

والجزء الثالث، في عيوب الشعر وهي الإخلال، والسرقة والضرورة.

والجزء الرابع في حدّ الشعر والعروض والقافية.

عرض الكتاب:

انتظم الجزء الأول أربعة أبواب، في كل باب قضية من قضايا النقد الأدبي. وبعض هذه القضايا مما تكرر فيه الحديث في كتب النقد العربي المتقدمة أو مما لم يعد قضية نقدية مطروحة، لاستقرار الأصول النقدية التي تعالجها. فهو تحدث عن فضل الشعر ومن تكلم به وأثاب عليه. وناقش حليّة الشعر وجواز إنشاده. وانتقل إلى أخبار مطولة من مواقف

الرسول الكريم ﷺ والصحابة والخلفاء وهلم جراً. وفي الباب الثاني تناول قضية قسمة الشعراء إلى طبقات أو تصنيفهم إلى صنوف. فالشعراء ثلاثة جاهِليُّون ومُخَضرمون وإسلاميُّون. وثلاثة: صُدور (مثل جَرير والفَرزدق والأخطل). ومُحْدَثُون (كالعَتّابي وأشْجع السُّلَمي والسَّيِّد الحِمْيرِيّ) ومُوَلَّدُون (مثل مُسلم بن الوليد، والحسَن بن هاني وأبان اللّاحقي). وفي الباب الثالث تحدث عن عمل الشعر وآدابه، وبيّن طريقة تأليف الشعر، والحال التي ينبغي أن يتهيأ الشاعر بها لكي يستطيع الإبداع. ونقل آراء سابقة وردت عند ابن قتيبة وقدامة، وابن رشيق. وفي الباب الرابع تحدث عن أغراض الشعر وآدابه، وقال إن الأغراض التي تدور على الألسنة ويتداولها الناس ثمانية أنواع: النسيب، والمدح، والتهنئة، والرثاء، والاعتذار، والعتاب، والذم، والوصف.

وخص الرُّندي الجزء الثاني من كتاب (الوافي) بموضوع: محاسن الشعر وبديعه ومعانيه. وتناول فيه فنون البلاغة ـ والبديع منها على الخصوص ـ وأورد في هذا القصد أربعين باباً مما اقتنع به، ورأى أن أهل الفن اجتمعوا على تأييده. قال «اعلم أن أرباب صنعة الشعر ونقاد الكلام تواضعوا في صناعة الشعر على أسماء وسموا بها بدائعه، ورسموا روائعه فجمعوا فوائده ونظموا بذلك فرائده. وقد أوردت من ذلك

أربعين بـــابــاً تـروق النـاظـر، ويفـوق بهـا المنـاظـر...»[1]
والأبـواب الأربعون تتنـاول: الابتداء والانتهـاء، والاستطراد، والمطابقة، والمقـابلة، والمناسبـة، والتشبيـه، والاستعـارة، والتخييل، والتفريـع، والتوجيـه، والتمثيل، والتمثـل (بمعنى المثـل السـائـر)، والتجنيس، والمضـارعـة (وهـو نــوع من التجنيس) والترديـد، والتصـديـر، والإتبـاع، والتبـديــل، والتضمين، والإطـراد، والتفسيـر، والمبـالغـة، والتتميم، والتسهيم، والتحـرز، والالتفـات، والتحـريف، والاستثنـاء، والقلب، والتصحيف (وهـو نـوع من التجنيس) والتـرصيـع، والتسجيـع، والتسميط، ولـزوم مـا لا يلزم، والتفصيـل، والتختيم (ويسمى التقـاطـع والاشتـراك)، والإحـالـة، ونفي الشيء بإيجابه، واللُّغز.

وفي الجزء الثالث تنـاول عيوب الشعـر، وهي كما صنفهـا ثـلاثة: الإخـلالُ، والسرقـة، والضرورة. ويـنـدرج تحت كـل واحـد من هذه الصنـوف أقسـام، وتتفـرع هـذه بـدورهـا إلى فـروع[2]. أمـا الإخـلال فيتنـاول عيـوب اللفظ أو المعنى أو ائتلافهما، وعيـوب الوزن والقـافية. وأمـا السرقـة «فهي على

(١) الـوافي (النسخـة التيمـوريـة ٧٤) وانـظر دراسـة مفصلة عن هـذه الفنـون ومصـادرها عنـد الرنـدي في: تاريـخ النقد الأدبي في الأنـدلس ـ د. محمـد رضوان الداية ـ دار الأنوار. «دراسات أندلسية ١».
(٢) الوافي (النسخة التيمورية) ١٤٠. (وتاريخ النقد الأدبي في الأندلس ٤٦٠).

أنـواع، وبابهـا متسع، والتخلص منهـا بالجملة يكـاد يمتنع، ويدل على استحسان الآخذ لما أخـذه وعجزه عن الإتيـان بما يغنيـه عنه أو على قلة المبـالاة بها»[1]. وهـو جعـل للسـرقـة أنـواعاً ونقـل لها ألقـاباً. وقسم الحـديث في هذا الجـزء إلى ضُـروب السـرقـة، ومراتب الأخـذ، وما يشبـه السرقـة. وأورد ألقاباً وتفصيـلات كثيرة، معـظم ما فيهـا سبق أن تحدث عنـه النقـاد المتقـدمـون، وبقي لـه فضـل الاختيـار، والتـرتيب، والتسمية (أحياناً)، والمعالجة وفق وجهة نظر خاصة.

والضـرورات الشعـريـة عند الـرنـدي على الجملة من العيـوب، ولكن بعضها أخف من بعض[2]. وهي عنـده على أربعـة أضـرب: التبـديـل، والتقـديم والتـأخيـر، والـزيـادة، والنقصـان ومعظم مـا في الباب نتيجـة، وخلاصـة، واختيار، لمؤلفات كثيرة تناولت هذا الموضوع في كتب النقد العربي.

أما الجزء الـرابع فخـاصّ بحدّ الشعـر والعروض والقـافية، وهو يلحق بالبحوث العروضية. وهو عدّ البحور العربية خمسـة عشر بحـراً، واستخرج البحـور المهملة ـ وأضـاف إليهـا بحـر المُتدارك ـ ومثل لكل ذلك تمثيلاً وافياً.

والـطريف أن الرنـدي لما استخرج البحـور المهملة لقّبهـا

---

(١) الوافي: ١٤٨.

(٢) الوافي: ١٥٧.

ألقاباً، وضرب أمثلة لها. كما نظم ضوابط خاصة بالبحور الشعرية المستعملة[1].

وعلى كل حال فإن كتاب الرُّندي يدل على استمرار وجود الحركة النقدية في الأندلس (الباقية) واهتمام جمهرة الدارسين بهذا النوع من التأليف. وقد كان الرندي في أثناء عرض موضوعات كتابه دائم الاحتجاج والاستشهاد بأشعار معاصريه ـ ومن تقدمهم ـ من الأندلسيين بالإضافة إلى الشواهد المتكررة في كتب النقد والبلاغة. وعمله هذا يربط ما بين الدراسة النقدية النظرية، والدراسة النقدية التطبيقية (ولو كان هذا على شكل بسيط).

وكان التقليد أغلب على ما في الكتاب من مادة وإن حاول المؤلف أن يسبغ عليه من نفسه، ويدخله في إطار منهج شخصي خاص. ولكن المادة النقدية الأولية في معظمها كانت من الكتب المتقدمة عليه. وكانت يد الرندي ممدودة ـ على الخصوص ـ إلى كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني، فقد كان الأندلسيون مهتمين به حتى إن محمد بن عبد الملك الشنتريني ألّف كتاباً في النّقد وأفاد منه وردّ عليه[2].

---

(١) انظر في هذا: المعيار في أوزان الأشعار (تحقيق د. محمد رضوان الداية) فقد نقلت فصول من كتاب الرندي في آخر الكتاب.

(٢) هو صاحب (المعيار في أوزان الأشعار) الذي سبقت إليه في الحاشية السابقة وكتابه هو (جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتاب) وسيصدر في سلسلة دراسات أندلسية بتحقيقنا.

ويظهر أن للكتاب غرضاً تعليمياً واضحاً، فهو أقرب إلى تلخيص المعلومات النقدية وتقريبها للقراء.

الرُّندي كاتباً:

نثر الرندي في كتابه «الوافي» بعض رسائله، وبقي لنا من مؤلفاته جزء من كتاب «روضة الأنس ونزهة النفس» هو الجزء الأول. ويمكن أن نلمّ إلمامة عامة بأسلوبه ـ على ضوء المتبقي من كتابه ـ. ولا نعرف له، في ضوء أخباره، مهمة كتابية ـ سلطانية ـ عند بني الأحمر في غرناطة أو إحدى مدن الأندلس الأخرى، أو عند سواهم ممن كان قبلهم. وقد سبق في الفصل الأول أننا لم نعرف له علاقة مباشرة مع حكام الأندلس قبل اعتلاء محمد بن نصر (ابن الأحمر) دولة غرناطة.

ونجد الرُّندي يَسلك في أسلوبه النّثري منهجين اثنين: أحدهما الأسلوب المنمَّق المثقل بضروب البديع، الآخذ بالسجع والتفصيل والتغصين. وهذا الأسلوب يظهر في مقدمة كتابه «الوافي» وكتابه الآخر «روضة الأنس». كما نجده في مقدمات فصول كتابه الأخير. والأسلوب الثاني سهل مُرْسَل تخفف الرندي فيه من القيود والمحسَّنات، وتجده في

---

(١) روضة الأنس ونزهة النفس: ص ١.

معالجته لقضاياه النقدية كلهافي الوافي، وبسطه لمسائله المختلفة في روضة الأنس.

وهو اتبع الأسلوب المتكلف في رسالته التي بعث بها من رُندة إلى الأمير محمد الثاني النصري معزّياً بوفاة والده، مهنئاً بولايته السلطة[1].

وهكذا فإن الرندي جمع بين الطريقتين وأجاد في الأسلوبين. وتجده في طريقته المرسلة البسيطة ناصع العبارة متمكناً من اللغة محكماً لتأليف الكلام.

فمن نثره على النهج الأول قوله في خطبة كتاب روضة الأنس[2] «الحمد للّه قبل وجود الأوائل، الآخر بعد ثبوت الدلائل. الظاهر بِما وجب من افتقار الفِعل إلى الفاعل. الباطن بما حجب من حقيقة الحق الذي ما خلاه باطل.

نحمده، سبحانه، كما يجب لمجده، وإن من شيء إلا يسبح بحمده. ونشهد أنْ لا إلّه إلا اللّه وحده لا شريك له، شهادة من شاهد فيض جُوده وتحقق وجوبَ وجوده. فوصَفه بالكمال، ونزّهه عن ضده. ونشهد أن محمداً صفوة أَصْفِيائه وخاتم أنبيائه وخيرة أهل أرضه وسمائه، نبي الرحمة وتمام النعمة. الذي بجاهه يتوسل يوم لا يقوم مقامه ملك مقرَّب ولا

---

(١) انظرها في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

(٢) روضة الأنس: ١ ـ ٢.

نبي مرسل. صلى اللّه عليه صلاة تُرضيه، وتَفِي بحقّه وتَقتضيه، وعلى آله وسلم وشرف وكرّم. وبعد فإنه لما كان الأدب روض القلب الذي فيه يرتع، ونُزهة النفس التي بها يتمتع، وريّ القلب عندما يظمأ وجلاء الفكر كلما يصدأ رأيت أن أجمع في كتابي هذا من عيون أخباره وفنون آثاره ومنثور فوائده ومأثور فرائده جملة يرتاح لها العاقل ويتباهى بها الناقل، ذلك لأني لم آخذ من أصداف الكتب إلا درُرَها، ولا أوردت من أصناف الأدب إلا غررها، والذهب يخلص باللهب وفي الخمر معنى ليس في العنب وسميته روضة الأنس ونزهة النفس..».

وعلى الرغم من أن النثر الفني في المشرق والمغرب على حد سواء قد بلغ ذروته، وتدرّج في مراتب الصنعة والتعقيد فإن الرندي لا يأخذ بالأسلوب الذي انتهى إلى (الأسْلُوب المُرَصَّع)[1] بل اختار نهجاً معتدلاً. ولعل هذا متعلق بتطلعه إلى الأسلوب المرسل وانطلاق قيوده كما في النص التالي من روضة الأنس أيضاً: من الباب الثاني في الأرض وما يتعلق بها من ذِكرِ الأقاليم والبلاد والبحار

---

(١) انظر في الأساليب النثرية في الأندلس كتاب «إحكام صنعة الكلام» لمحمد بن عبد الغفور الكلاعي تحقيق د. محمد رضوان الداية ـ عالم الكتب ـ ـ الطبعة الثانية بيروت. وتاريخ النقد الأدبي في الأندلس: ٤٠١ تأليف محمد رضوان الداية ـ الطبعة الثانية مؤسسة الرسالة ـ دمشق وعصر الطوائف والمرابطين للدكتور إحسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت.

والأنهار. وفيه[1] «ذكر أهل البحث والنظر أن الأرض مطبقة على مركز العالم ثابتة في جوف الهواء، وهو محيط بها وبما عليها من البحار لا يمسكها ماسك إلا الحكمة الربانية والقدرة الإلهية كما قال الله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾. وذكر الناس في علة نبات الأرض في جوف الهواء الذي تأباه أفهام العوام وجوهاً أحقها أنه لما كان مركز العالم هو حقيقة السفل ونهايته الذي يطلبه كل جسم ثقيل بطبعه انضمت عليه أجزاء الأرض من كل جهة فبقيت لذلك ثابتة في جوف الهواء. ولا يمكن للثقيل إذا تحرك السفل أن يتجاوز المركز لأن ذلك يضاد حركته الطبيعية.

وقيل وجه آخر في ذلك وهو أن الله تعالى جعل في الفلك قوة جاذبة للأرض كذب المغنطيس للحديد، فلما استوى الجذب من كل جهة بقيت في الهواء ثابتة»[2].

كتابه روضة الأنس ونزهة النفس:

يعد كتاب الرندي الذي سماه روضة الأنس ونزهة النفس

---

(١) روضة الأنس ونزهة النفس ص ١٨. وننقل النص دون تعليق على قيمة المعلومات الجغرافية فيه.

(٢) لم يطلع كراتشكوفسكي على كتاب الرندي هذا. ولكنك تجد دراسة عن الأدب الجغرافي لعصر الرندي وأعلامه في كتابه تاريخ الأدب الجغرافي العربي ـ ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ـ القاهرة ـ جزآن.

في كتب الثقافة العامة التي شاع التأليف فيها؛ والتي كان مثالها البارز كتاب ابن قتيبة: عيون الأخبار. ويقول الرندي في مقدمة كتابه إنه ألفه كتاباً في الأدب جامعاً لعيون الفنون والآداب والأخبار والفرائد والفوائد، وأنه انتقى «من الكتب دررها ومن أصناف الأدب غررها». ويكون (الأدب) الذي قصد إليه هو الأدب بمعناه الواسع الشامل الذي عرفه ابن خلدون بأنه الأخذ من كل علم بطرف.

وجعل كتابه في عشرين باباً تتوزعها الموضوعات التالية: الباب الأول في العالم ومعالمه. والثاني: في الأرض والبلاد. والثالث: في بدء البشر. والرابع: في النبي ﷺ. والخامس في الخلفاء وأهل البيت. والسادس: في الدولة الأموية. والسابع: في الدولة العباسية. والثامن: في أهل الردة والخوارج. والتاسع: في جمل من الفتوح. والعاشر: في لمع من...[١]. والحادي عشر: في الحرب. والثاني عشر: في الملك والرياسة. والثالث عشر: في العلم. والرابع عشر: في الشعر. والخامس عشر: في المال. والسادس عشر في النساء والبنين. والسابع عشر: في الناس والزمن. والتاسع عشر: في الحكايات. والباب الموفي عشرين: في الحكم والمواعظ».

(١) غير واضحة في الأصل (النسخة المصورة).

وهو في هذه الفصول ـ في الأغلب الأعم ـ ناقل ومصنف ومرتب، بيد أن له فضل العبارة الأنيقة والكلمة الرشيقة قال: «وقد ضممت في كل جزءٍ منها الشيء إلى ما يماثله، وألحقت به ما يشاكله. ولجأت إلى فكري في كثير من الفصول القصار واللفظ المختار. إذ كان القصد في ذلك الإجادة لا الرواية والإفادة لا الحكاية»[1].

والموجود من الكتاب هو الجزء الأول[2]، وينقطع في أثناء الباب التاسع «في جُمَل من الفُتوح». وقد رفع الرُّندي كتابه إلى الأمير النصري محمد بن محمد وطرزه باسمه، احتفاء وتقديراً «فإنه ـ أيده الله ـ زان الملك بالذات الفاضلة والصفات الكاملة والنصبة الإمارية والنسبة الأنصارية، فمن همم تساوي المجد وتجاوز الجوزاء وشِيَم شِيْمَ بها الدهر، وينتسب لها الزهر، إلى جود تروى به الآمال ويسترق بمثله الأحرار». ولا يخفى المغزى من الوصف بالكرم والجود في خطبة الكتاب.

ومصادر الكتاب مختلفة متعددة، عرفنا منها عرضاً، وفي

---

(١) روضة الأنس الورقة: ٢.

(٢) اطلعت على النسخة المصورة عند صديقي الأستاذ محمد مفتاح، عن الأصل الموجود في مكتبة صديقنا الأستاذ الفقيه العلامة محمد المنوني الذي تكرم مشكوراً بالموافقة على الإفادة من الكتاب.

أثنـاء القسم الباقي من الكتـاب: كتاب ابن حـزم الفصـل في الملل والأهـواء والنحل، وكتـاب المسعـودي مروج الـذهب ومغازي الواقـدي. وهو نصَّ على النقـل من ابن إسحاق (في السيــرة) وعن (صـاحب التيجــان) وصــاحب المجســطي، وصاحب الزهر (زهر الآداب). ولا شك في أن مصادره كثيـرة وإن لم تتضح لنا جميعاً.

وكتاب الرندي من كتب الثقافة العامة التي يستفاد منها في الأغراض التعليمية وما يشبه ذلـك. وليست في الكتاب جـدة أو إبـداع يلفت النظر. ولكن الأديب الشـاعر كـان يخرج عن موضوعه ليقدم قطعاً وقصائد من شعره تلون الكتاب وتقدم لنا ذخراً طيباً لشاعر غاب عنا ديوانه.

● ● ●

الفصل الرابع

مختارات من آثاره

[١]

قال في مديح الأمير محمد بن نصر أمير غرناطة:

سَلِّم على الحَيِّ بِذَاتِ العَرارْ
وحَيِّ من أجلِ الحَبيبِ الدِّيارْ[١]
وخَلِّ من لامَ على حُبِّهِمْ
فمَا عَلى العُشّاقِ في الذُّلِّ عَارْ
3 ولا تُقَصِّرْ في اغتِنَامِ المُنىٰ
فمَا لَيالِي الأُنسِ إلا قِصَارْ
وإنما العَيْشُ لمن رامَهُ
نَفْسٌ تُداريٰ وكُؤوسٌ تُدارْ
وروحُه الرَّاحُ ورَيحانُهُ
في طيبِهِ بالوَصْلِ أو بالعُقارْ[٢]
6 لا صَبْرَ للشَّيء على ضِدِّهِ
والخَمْرُ والهَمُّ كماءٍ ونَارْ
مُدَامَةٌ مُدْنِيَةٌ للمُنى
في رِقَّةِ الدَّمعِ ولونِ النُّضارْ[٣]

---

(١) العرار: نبات طيب الرائحة (بهار البر) وذات العرار علم على مكان.
(٢) العقار: الخمرة.
(٣) النضار: الجوهر الخالص من التبر.

مـمّـا أبـو رِيْـق أبـاريـقِـهـا

تنـافستْ فيهـا النـفـوسُ الكبـارْ

9 مُـعـلّتـي والـبـرء مـن عـلتـي

مـا أطيبَ الخمـرة لـولا الخُمـارْ[١]

مـا أحسنَ النـارَ الّتي شكـلُهـا

كـالمـاءِ لـو كفَّ شِـرار الشَّـرارْ

وبـي وإن عُـذّبـتُ فـي حُـبِّـهِ

بِبُعْـدِهِ عـلى اقتِـرَابِ الـمـزَارْ

12 ظبْـيٌ غَـريـرٌ نـامَ عـن لَـوْعـتي

ولا أذوقُ الـنَّـوْمَ إلا غِـرارْ[٢]

ذو وَجْـنَـةٍ كـأنّـهـا رَوْضَـةٌ

قـد بَـهـر الـوَرْدُ بـهـا والبَـهـارْ

رجَـعـتُ لـلصَّـبـوة فـي حُـبِّـهِ

وطـاعـةِ اللّـهـوِ وخَـلْعِ العِـذارْ

15 يـا قَـوم قُـولـوا ـ بـذِمـامِ الهـوى ـ

أهـكـذا يَفْـعَـلُ حُـبُّ الصِّـغـارْ؟

ولَـيْـلَـةٍ نَـبَّـهْـتُ أَجْـفـانَـهـا

والفَجْـرُ قـد فَـجَّـر نهـرُ الـنَّهـارْ

---

(١) الخمار: صداع الخمرة وأذاها وما خالط من سكرها.

(٢) الغرار من النوم: القليل.

والليـلُ كـالمَهـزومِ يَـوْمَ الـوَغىٰ
والشُّهبَ مثـلُ الشُّهب عنـد الفِـرارْ
18 كـأنَّمـا استَخْفىٰ السُّهـا خِيفـةً
وطُـولـبَ النَّـجمُ بـثـارٍ فثـارْ
لِـذاكَ مـا شـابَتْ نَـواصِي الـدُّجىٰ
وطـارَحَ الـنَّـسْـرُ أخَـاهُ فـطارْ
وفـي الـثُّـرَيّـا قَـمـرٌ سـافِـرٌ
عـن غُـرَّةٍ غيَّـر منـهـا السِّفـارْ
21 كـأنَّ عُـنـقـوداً تـثـنَّـى بـهِ
إذ صـارَ كالعُـرجون عنـد السِّـرار[1]
كـأنّـهـا تـسـبـكُ ديـنـارَهُ
وكـفُّـهـا يـفـتِـلُ مـنـهُ السِّـوارْ
كـأنـمـا الـظَّلمـاءُ مَـظلومـةٌ
تـحكَّـمَ الـفَـجْـرُ علَيـهـا فَـجـارْ
24 كـأنّـمـا الـصُّـبـحُ لـمـشـتـاقِـهِ
عِـزُّ غِـنىً مـن بـعـدِ ذُلِّ افـتِـقـارْ
كـأنـمـا الشَّـمسُ وقـد أشـرقَـتْ
وجـهُ أبـي عـبـدِ الإلَـهِ اسـتَـنـارْ

---

(١) استسر القمر أي خفي ليلة السرار؛ فربما كان ليلة وربما كان ليلتين.

27 مــحـمَّــدٌ مــحــمَّــدٌ كــاســمِــه

شخصٌ لــهُ في كــل مـعنى يُشــارْ

أمــا المَعــالي فهــو قــطبٌ لـهــا

والقُــطبُ لا شَــكَّ عليــهِ الـمــدَارْ

مُـؤثَّــل المَـجْــدِ صَـريــحُ العُــلا

مُهــذَّبُ الــطَّبْــعِ كــريمُ النِّجــارْ

تُــزهــىٰ بــه لَـخْــمٌ وســادَاتُــهــا

وتـنتَـمي قَـيْسٌ لــهُ فـي الـفَـخــارْ

30 يُــفـيضُ مــن جُــود يــديــهِ عــلى

عــافِيــه مــا مِنْــهُ تحــارُ البِـحــارْ

الـيُمـنُ من يُـمـنــاه حُـكـمٌ جَــرى

واليُسْــرُ مـن شِيـمــةِ تلكَ الـيســارْ

أخ صـــفــا مـــنــهُ لـــنــا واحِـــدٌ

فـالـدَّهـرُ مِـمَّـا قـد جَنىٰ في اعتـذارْ

33 فـإنْ شَـكـرْنَـا فَـضْـلَهُ مـرَّةً

فقــد سَكِــرْنــا مـن نَــداهُ مِــرارْ

ونــحــنُ مـــنــه فـي جــوار الــعُــلا

تــدورُ لــلسَّعــدِ بــنــا مِــنْــهُ دارْ

الــحــافظُ الــلّهُ وأســمــاؤه

لــذلــك الـجــارِ وذاكَ الــجِــوارْ

[٢]

قال في الوافي: «وانفصلت عن الحضرة النصرية ـ أسماها اللّه ـ في بعض زوراتي، وقد تُكلم بإعذار الأمير ـ أعزه اللّه ـ فقلت في عروض هذه القصيدة»(*):

أَلِـثـامٌ شـفَّ عـن وَرْدٍ نـدِ
أم غَـمـامٌ ضَـحِـكتْ عـن بَـردِ
أم عـلى الأزرارِ مِـن حُـلَّتـهـا
بـدرُ تـمٍّ فـي قَـضـيـبٍ أمْـلدِ
3 بـأبـي لِـيـنٌ لـه لـو أنَّـهُ
نُـقـلت عِـطفـتُـه لـلخَـلَدِ
لا وألـحـاظٍ لـهَـا سـاحِـرَةٍ
نـفَثَـتْ في الـقَلْبِ لا فـي الـعُـقَـدِ
لا طـلبتُ الـثـأر مِـنـهـا ظـالـمـاً
وأنـا الـقـاتـل نـفـسِـي بِـيَـدي!
6 نـظرْت عَـيْـنـي لِـحَـيْـنـي نـظرةً
أخـذتْ رُوحي وخلّت جسَـدي[1]
هـاتِـهـا بـاللّهِ فـي مـرضـاتـهـا
قَـهـوةً فـيـهـا شـفـاءُ الـكـمـدِ

(*) الوافي (النسخة التيمورية): ٥٢.

(١) الحين: الهلاك.

عُصِرت بالُّلطف في عصرِ الصِّبا

فرمت بالمسكِ لا بالزَّبدِ

9 ما دَرى مُديرُها في كأسِها

ـ وهيَ مثلُ البارقِ المتقّدِ

دُرةٌ ضمَّت على ياقوتةٍ

أم لجينٌ فيه ثوبٌ عسجدي

سقِّني غَيْرَ مُليمٍ إنني

حنفيُّ الرأيِ والمعتقدِ!

12 لا أرى بالسُّكر إلا مِن هوى

أو هِبات الملكِ المؤيَّدِ

مَلكُ العَليا ولو أنصفتُهُ

فَفتحت اللام لم أُفنَّدِ[1]

---

(١) يريد ملك (بفتح اللام).

[٣]

قال صاحب الكتاب (كتاب الوافي): ولما بويع بالحضرة النصرية بولاية العهد الأمير المعظم أمير المسلمين ـ أيده اللّه ـ واقترن بذلك مولد ابنه الأمير المعظم ـ أسعده اللّه ـ قلت في ذلك في عروض قصيدة أبي الطيب(*).

مَنْ الظباءُ تَرُوع الأسد بالمُقلِ
وما رَمتْها بغيرِ الغُنْجِ والكحَلِ

من كلّ رَوْدٍ تَرُدُّ السُّمر مشرعةً
وما اتَّقها بغيرِ الحَلْيِ والحلُلِ [١]

3 وربّما أقْدَمتْ والخَيْلُ مُحْجِمةً
فتطعَنُ الطَّعْنَةَ النجلاءَ بالنَّجلِ [٢]

تلك الشُّموسُ التي قد أطلعْت قُزَحاً
أذيالهنَّ ولا غَيْمٌ سِوَى الكِلَلِ [٣]

يُريك شَرْحَ الصِّبا منهن رأدُ ضُحىً
وهنّ من مُذهباتِ العَصْب في أُصُلِ [٤]

(*) قصيدة الرندي معارضة لقصيدة المتنبي التي مطلعها:

أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل
دعا فلباه قبل الخيل والإبل

(١) في القاموس: الرئدة والرؤودة الشابة الحسنة.

(٢) النَّجَلُ (بالتحريك) سعة العين.

(٣) الكلل ج كله: الستر الرقيق.

(٤) رأد الضحى: ارتفاعه. وأصل جمع اصيل.

6 كم للجَمالِ بها من آيةٍ تُليت
على المُحِبّ فجلّت شبهةَ العَذلِ
وقُضب بان على كثبٍ لها زهرٌ
يُسقى - ولا ظمأٌ - بالأدمُع الهمُلِ
خفَّت لها وُشحٌ جالتْ على هيفٍ
فوقَّرتها من الأرْدافِ بالثِّقَلِ
9 ونَظْرَةٍ يُشْتَفىٰ منها بشانيةٍ
كما تداويتَ بالصّهباءِ من ثَمَلِ!
بعثُ الحياةَ بها من لحظِ جارِيَةٍ
إذا رنَتْ فحِذَاراً مِن بني ثُعَلِ[١]
ولّى عزائي مِن أجفانها فَرَقاً
كأنّما هُو عمروٌ وهي سيفُ علي!
12 وليلةٍ بالِّلوى ما كانَ أطْيَبها
زالتْ معاهِدُها والعهدُ لم يَزلِ
بتنا نُساقي المنى والأنسُ ثالثنا
والرّاحُ من شَنبٍ والنُّقْلُ من قُبَلِ[٢]

---

(١) بنو ثعل حي من أحياء العرب، وهم الذي عناهم امرؤ القيس بقوله:
رب رام من بني ثعل مخرج كفيه من ستره
(٢) الشنب: عذوبة في الأسنان.

حتى بَدتْ غُرَّةٌ للصُّبْحِ مُشْرِقةً
كمثلِ وجهِ وليِ العهدِ يوم وَلِي

15 يا يوم سَعْدٍ كأنَّ العيدَ عادَ بهِ
والنّاسُ في مَرحٍ والدَّهْرُ في جَذَلِ

شَهِدْتُه، فرأيْنا الأَرْضَ قد بَهرتْ
والشّمس قد سَترتْ وَجْهاً من الخَجلِ

ولِلطُّبول به خَفْقٌ يُساجِلُهُ
خفقُ البنودِ على الخَطِّيَّةِ الذُّبُلِ

18 وكلّ أشوسَ ساجي الطّرف من أدبٍ
يهوي للثم يدٍ أشهىٰ من الأَملِ

ويَجْتَلي غُرّة بالبِشْرِ مُشْرِقَةً
كما تجلَّتْ إياهُ الشّمسِ في الحَمَلِ[1]

لِلّهِ لِلّهِ من عِيدين في نَسَقٍ
لِهذه الدولةِ الغَرَّاءِ في الدُّولِ

21 أهلاً بذا الولدِ الميمون مولِدُهُ
والصّارم المُنْتضى من أكرمِ الخللِ

أهلاً بذَا الملك النَّصْريّ محتِدُهُ
والفارسِ البطلِ بن الفارسِ البطلِ

---

(١) إياة الشمس: نورها وحسنها.

وبيعــةٍ عُقِـدَتْ والسّعــدُ يُسعِـدُهــا
فما تَرى في خـلالِ الأمن من خَللِ
24 عـلى تقـلّدهــا أَوْلى الأنــامِ بـهــا
ووارث المجــدِ مـن آبــائــهِ الأُوَلِ
الفـاعـل الفعـلَ لا يُعْـزىٰ لــه خَـطأٌ
والقـائل القـولَ لا يُؤتي من الخَطلِ
مُحيِي الغَــرِيبين من دِيْـنٍ ومن أدَبِ
وقـاتـلِ القــاتِلَيْنِ: الجُبْنِ والبَخَـلِ
27 وبــاعث الجَيْش بعـدَ النّــذر مُتَّئِداً
فينثني وهــو في ثــانٍ مـن النَّـفَـلِ
مـا نـامَ عن بــأسـهِ قَــوْمٌ على غَـرَرٍ
إلا وأيْقـظَهُمْ طيفٌ مـن الــوَجَــلِ
ولا انْتَضىٰ عَــزْمَــهُ سَيفــاً لِهَيْبَتِــهِ
إلا تَغْلَغَــلَ في الأحشــاءِ كــالغَللِ
30 ولا هَمىٰ جُــودُهُ مـن سُحْـبِ أنْمُـله
إلّا وأغْـنَتْ أيــاديــه عـن الـسبـل
صـفـاتُ ملكٍ صِـفَـاتُ الـمكرمات له
كالنّعْتِ، كالعطفِ، كالتوكيد، كالبدل
وخُلق من خُـلقتْ لـلسَّعــدِ غُــرَّتــهُ
وللعُلى يَــدهُ، والجـودِ، والقُبـلِ

33 كـالغيثِ لكنَّهـا نفـعٌ بـلا ضَـررٍ
كـالبحـرِ لكنّهـا أَحْلى من العَسَـلِ
كـأنَّ راحَـتَـهُ روضٌ؛ ولا زهَـرٌ
غيـر اليَـراعِ بهـا والبيْضِ والأَسَـلِ
من أصفَـرٍ حُبّـه للمَـجْـد أنْحَـلَهُ
فلو بَـرَاهُ الهَـوى مـا شـاءَ لم يَحُـلِ
36 أَخُـو الـرُّدَيْنِيِّ من شَكْـلٍ ومَكْـرُمَـةٍ
وربّمـا طـالَـهُ فِعـلاً ولـم يَـطُلِ
وأبيض صِيْـغ مـن مـاءٍ ومن لَـهبٍ
على اعْتمـالٍ فلم يجْمَدْ ولم يَسِـلِ
ماضي العِذارِ يَهابُ الغُمر[1] صـولتَهُ
كـأنّمـا هـو مَـطْبُـوعٌ من الأَجـلِ!
39 أبْهىٰ من الوَصْلِ بعـد الهجر مَنْـظَرُهُ
حُسْنـاً وأقـطع من بَيْـنٍ على مَـللِ
وأسـمـر ظنَّ مـاءً كـلُّ سـابـغـة
فحاصَ كالأيْمِ يَسْتَسقِي من النَّهَلِ[2]
هـامَ الكمـاةُ بـه حُبّـاً ولا عَجَـبٌ
من لـوعـةٍ بمليـحِ القَـدِّ معْتَـدِلِ

(١) الغمر (بالضم) الذي لم يجرب الأمور.
(٢) الأيم: الأفعى.

42 إذا الـطَّعِـيـنُ تَـلقَّـاه فـأرْعَـفـهُ
حسبْتَـهُ عـاكِفـاً يَبْكي على طَـلل
يا ابن الهُمامِ الذي له حُلىً حَسُنت
بهـا الإمارةُ حُسْنَ المَـدْحِ بـالغَـزَلِ
ومـنْ لـه كَـرمٌ رِيشَ الشِّـتـاءُ بـه
فطارَ حتّى سَرى في الأرضِ كالمَثلِ
45 اهْنَـأ بهـا نِعَمـاً في إثْـرِهـا نِعَـمٌ
وسرّ واسْمُ وصِلْ وجُـدْ وسُدْ وصِـلِ
وخـذْ إليـكَ حُلىً فـصَّلْـتهـا حُلَلاً
الفَضْـلُ فيها لِتلْكَ المَكْـرُماتِ، وَلِي
واستَقْبِل السَّعْدَ بالبُشْرىٰ التي طَلعتْ
وابلغْ بِتلْكَ العُلىٰ مـا شئْتَ من أمِـلِ

[٤]

قال أيضاً:

وليـل صَبابَـةٍ كالـدَّهْـرِ طُـولاً
تـنـكَّـرَ لـي وعَـرَّفـهُ الـتـمـامُ

3 كـأن سـمـاءَه روض تـحـلَّى
بـزهـر الـزُّهـر، والشّـرقُ الكِمـام

كـأن البـدر تحت الغيـم وجـهٌ
عـليـه مـن مـلاحَـتِـه لـثـام

كـأن الـكـوكـبَ الـدُّريَّ كـأسٌ
وقـد رقَّ الـزُّجَـاجَـةُ والـمُـدامُ

كـأن سـطورَ أفـلاك الـدّراري
قِـسيٌّ والـرُّجـوم لـهـا سِـهـامُ(١)

6 كـأن مـدارَ قُـطب بـنـاتِ نـعش
نَـدِيٌّ والـنُّـجـومُ بـه نِـدامُ(٢)

كـأن بـنـاتـه الـكـبـرى جَـوارٍ
جـوارٍ والـسُّـهى فـيـهـا غـلامُ(٣)

---

(١) قسي جمع قوس.
(٢) ندام جمع نديم.
(٣) السها كوكب خفي من بنات نعش الصغرى.

كـأن بَنـاتـه الصُّـغـرى جُـمـانٌ

عـلى لـبَّـاتـهـا مـنـه نِـظامُ

9 كـواكـبُ بِتُّ أرعـاهـنَّ حتّـى

كـأنّـي عـاشِـقٌ وهـي الـذِّمـامُ

إلـى أن مـزّقَـتْ كـفُّ الـثُّـريـا

جيـوبَ الأفق وإنـجـابَ الـظَّلامُ

فـمـا خِلْتُ انْـصِـدَاعَ الفَـجْـرِ إلاّ

قِـرَابـاً يُـنْـتَـضـىٰ مـنـهُ حُـسـامُ

12 ومـا شـبَّـهـتُ وَجْـهَ الـشّـمسِ إلاّ

بِـوجْـهِـكَ أيُّـهـا الـملكُ الـهـمـامُ

وإن شَـبّـهـتُـه بـالـبـدْرِ يَـوْمـاً

فـللبـدْرِ الـمَـلاحَـةُ والـتَّـمـامُ

[٥]

وقال أيضاً:

علِّلاني بذكرِ تلكَ اللّيالي
وعهودٍ عهِدتُها كالّلآلي

لستُ أنسى للحُبِّ ليلةَ أُنسٍ
صالَ فيها على النَّوى بالوصالِ

3 غفلَ الدَّهرُ والرقيبُ وبِتْنا
فعَجِبْنا من اتّفاقِ المُحالِ

ضمَّنا ضمَّةَ الوِشاحِ عِناقٌ
بيَمينٍ معقودَةٍ بشمالِ

فبردتُ الحَشا بلَثْمٍ برودٍ
لم يزل بي حتّى خَبا لي «خَبالِي

6 وكؤوسُ المُدامُ تجلو عَرُوساً
أضحكَ المَزْجُ ثغرَها عن لآلِ

ولِنَحْرِ الدُّجىٰ ذوابلُ شَمْعٍ
عكسَتْ في الزُّجاج نورَ الذُّبالِ[١]

والثُّرَيّا تمُدُّ كَفّاً خضيباً
أعْجَمَتْ بالسِّماكِ نونَ الهلالِ

---

(١) الذبال ج الذبالة: القتيلة (للمصباح وغيره).

9 وكــأنّ الــصّـبــاحَ إذْ لاحَ سـيــفٌ
يُـنـتـضـى مـن غَـيـنٍ ومـيـمٍ ودالِ
ومسحْـنـا الكَـرى إلى غــانيــاتٍ
غــانيــاتٍ بكــلّ سِـحــرٍ حَــلالِ
في ريــاضٍ تبسّم الــزّهــرٌ فيهــا
لـغــمــامٍ بـكــتْ دُمـوعَ دلالِ
وجَــرى عــاطــرٌ الـنّـسيـم عـليــلاً
يـتهــادى بـين الـصَّبــا والـشمــالِ
12 فــاكْتَسى النُّـهْــرُ لأمــةَ منــه لَـمَّــا
أنْ رمىَ الـقَــطْرُ نـحــوهُ بـنــبــالِ
يــا لـيــالي مُـنـىً سَــلامٌ عـليـهــا
أتُــراهــا تَـعُــودُ تلكَ الـليــالي؟!

[٦]

وقال أيضاً:

مـا ضـرَّ مَـنْ يـمـنـعُـنـي قُـربَـهُ
لـو جـاءَ في الهجـرِ بمـا يقـربُ
مـا ضـرَّهُ ـ والأمـرُ في حكـمِـه ـ
لـو قَـبِـلَ الـرَّغـبـةَ إذ يَـرْغَـبُ
3 أضـربَ عَـنّـي حـيـنَ لا حِـيْـلَةٌ
فـصـارَ وَجْـدي مـثـلاً يُـضْـرَبُ
عـجـبـتُ لـلـصـبْـرِ عـلى صَـدِّهِ
لـكـنَّ عَـيـشـي بـعـدَهُ أعْـجَـبُ
الـجَـوْرُ مـنـهُ ولـهُ الـمُـشْـتَـكـى
والـعُـذْرُ مـنّـي وهـو الـمُـذنـبُ
6 رضـيـتُ بـالأمْـرِ عـلى حـالِـه
فـليتَ شِـعـري مـالَـهُ يـغْـضَـبُ؟

[٧]

وقال أيضاً:

قـطَّـع قـلـبـي بـصـدِّهِ قِـطـعـا
وإنـمـا ضَـرَّني ومـا انـتـفَـعـا

وغَرَّني أوّلاً بِوصْلَتِهِ
وعندَما لذَّ وصْلهُ قطَعا
3 ومَرَّ عنّي لمَّا شكوتُ لهُ
كأنَّهُ ما رَأى وما سَمِعَا
واكَبِدي - لو تُفيد «واكبدي»
لم يترك الدَّهْرُ فيه لي طمَعا
يا ليت قلبي الّذي وهبتُ لهُ
يرجعْ لي اليوم كيفَما رجَعا!

[٨]

وقال أيضاً:

يا سالب القلب منِّي عندما رمَقا
لم يُبقِ حبُّك لي صَبْراً ولا رَمقا
لا تسألِ تليومَ عَمّا كابدتْ كبدي
ليتَ الفِراق وليتَ الحُبَّ ما خُلِقَا
3 ما باخْتياريَ ذُقتُ الحُبَّ ثانيةً
وإنَّما جارتِ الأَقدارُ فاتَّفقا
وكنتُ في كَلفي الدَّاعي إلى تَلفي
مِثلَ الفَراشِ أَحَبَّ النَّارَ فاحتَرقا

يـا مَنْ تَجلَّى إلى سِـرّي فَصَيَّـرنِي
دَكّـاً وهَـزَّ فُؤادي عنـدَمـا صعَقـا
6 انْـظُرْ إليّ فـإنّ النَّفسَ قـد تَلِفتْ
وارفُقْ عَليَّ فـإنّ الرُّوحَ قـد زَهِقـا(١)

[٩]

قال الرُّندي: ولي «مربعة»

1 كـم دُعـينـا لـغيـركم فـأبَيْـنـا
وضَـحِـكـتمُ تَـدلُّـلاً فَـبـكـيـنـا
يـا قُـسـاةَ القُـلوبِ رِفْقـاً عَـليـنـا
مـا خُلِقْنـا بـينَ الأنـامِ حَـدِيـدا
2 يـا قُـدودَ الغُصـونِ عنْـدَ التَّثَنِّي
مـا لَكُمْ فـي عَـذابِنـا بـالتَّجنِّي
قـد قَنِعْنـا حتّى نَسينـا التَّمنِّي
وخَضعْنـا حتى بَسـطْنـا الخُـدودا
3 كـم شَكَـونـا إلـيكـمُ لـو رحِمْـتُمْ
وعَـلِمْتُـم من حـالِنـا مـا عَلِمْتُمْ
كـلَّ يـومٍ نـزيـدُ حُبـاً وأنـتُـمْ
لا تـزيـدونَ فـيـهِ إلاّ صُـدودا

---

(١) زهقت نفسه، وروحه: خرجت.

4 آهِ مـن ضَيْعَـةِ الـقُلوب لــديكـمْ
حَسْبُنـا أن نفـرّ منكُـم إلـيكـمْ
مـا لنـا في الهَـوى اختيـارٌ عليكُمْ
غـايَـةُ الصَّبِّ أن يمـوتَ شَهِيـدا
يـا عُقـوداً قـد نُـظِّمَتْ وسُلوكـا
مـا وَجَـدْنـا إلى سِـواهـا سُلوكـا
قـدَّرَ الـلّه أن تـكـونُـوا مُـلوكـا
وقَضى: نَحْنُ أن نـكـونَ عبَيـدا!

[١٠]

وقال أيضاً:

أيـا أضـلعـاً حَـرُّهـا يـلهـبُ
ويـا أدمُـعـاً درّهـا يُـنـهَـبُ
عـجيبٌ لـعـمـركَ شـأن الـهـوى
ولـكـنّ صَـبْـري لـهُ أعْـجـبُ
3 ولـمْ أرَ كـالـحـبِّ يـا عـاذلـي
عـذابـاً، ولـكـنّـهُ يَـعْـذُبُ
ولا كـالـحـبـيـبِ وخـذلانـهِ
يـزيـدُ صُـدوداً إذا يُـرْغَـبُ!

يَــرى أن ذنــبـي حُــبـي لــهُ
بعيْشِــكَ قــل لي ؛ مَنِ المــذنــبُ؟

6 ولــسـتُ بــســالٍ كـمــا يَــدَّعــي
ولا مِـنْ حــديــدٍ كـمــا يـحـسِـبُ

إذا كــنــتُ أرْضــى بــمــا شــاءَهُ
فــيــا ربُّ مــا بــالــهُ يَـغْـضَـبُ؟

إذا كــانَ قَـلبي جَـنى مـا جَــنـى
فــيــا لَـهْـفَ نـفـسـيَ مَـنْ أطـلبُ؟

9 وإن كــانَ هــذا بـحُـكْـمِ الـقَـضــا
فـيــا لـيـتَ شِـعْـرِيَ مَـنْ أُعـتـبُ؟

[١١]

قال: «ومن حسن ما قيل في وصف الجيش والخيل والسلاح قولي»:

وكـتـيـبــةٍ بــالــدّارعـيـنَ كـثـيـفـةٍ
جـرّتْ خيـولَ الجحْفـلِ الجَـرّارِ[١]

روضُ المَنــايــا قُضْبُهــا السُّمْـرُ التي
من فَـوْقِهـا الـرّايـاتُ كـالأزهـارِ[٢]

---

(١) رجل دارع: عليه درع.
(٢) السمر: الرماح.

3 فيهــا الكمــاةُ بنــو الكمــاةِ كــأنهم
أُسْــدُ الشَّــرى بين القَنــا الخَــطَّارِ
متهــلّلين لَــدى الـصِّيــاح كــأنـمــا
خُــلِقَــتْ وجــوهــهــمُ من الأَقْــمــارِ
6 مــن كــل ليْثٍ فوق برقٍ خــاطِــف
بــيــمــيــنِــهِ قَــدَرٌ مــن الأقــدارِ
مــن كــلٍّ مــاضٍ يَـنـتـضـيــه مـثـلُهُ
فـيـصُــبُّ آجــالاً عــلى الأَعْــمــارِ
لبسوا القُلوبَ على الدُّروعِ وأَشْـرَعُوا
بــأكـفِّـهــمْ نــاراً لأهْــلِ الـنــارِ[١]
وتـقــدَّمُــوا ولهـمْ على أَعــدائـهـمْ
حـنقُ الـعِــدا وحـمـيَّــةُ الأنصــارِ[٢]
9 فــارتــاعَ نــاقــوسٌ لخلعِ لســانِــه
وبـكـى الـصّليب لـذلــةِ الـكُـفّــارِ
ثــم انـثَـنَــوْا عــنــهُ وعــن عُـبّــاده
وقَــد اصبَحُــوا خبــراً من الأخبــارِ!

---

(١) تكرر هذا المعنى عند الشاعر في قصيدة أخرى.

(٢) كذا (العدا) في الأصل.

[١٢]

ولـه تهنئة بثـلاثـة أشيـاء، في بيت واحـد: عيـد، وإبـلال وإياب.

أفــاقَ لـمَّــا أفقْـتَ الجـودُ والأدبُ
وهُنِّىءَ المجـد إذ هُنِّيت والحـسبُ
يـا لمحـةً أَطلعَ العيـدُ السعيـدُ لهــا
وجهـاً مكـانَ هـلالِ العيـد يُـرتقبُ
3 وحـلَّةً بـطرازِ الحُـسْن قـد رُقِـمَتْ
لا يُـرقم الثَّـوبُ إلا وهــو منتـخَبُ
إن كانَ قد هَـزَّ ذاك العطفَ من ألمٍ
فمن أقــلَّ نـسيـمٍ تَنـثني القُـضبُ
أو بــانَ فيكَ شحــوبٌ راقَ رونَقُــه
فـلستَ إلا لُـجَيْنــاً مَـسَّــهُ ذَهـبُ
6 صحَّتْ بِصحَّتك العَليا وزُيِّنت الـدُّنْـ
ـيـا فـإنْ زُهِيَتْ عُجْبـاً فـلا عَجبُ
فــاهنأ بعيــدٍ سعيدٍ لا نـظيـرَ لَــهُ
يُــدْعىٰ كبيـراً ولكن بُــرؤك السَّببُ!
وانعمْ بنعمــةِ إقبـالِ الــوزيـرِ وقــد
يُــدْعىٰ كبيـراً ولكن بُــرْؤك السَّببُ!

وانعمْ بنعمــةِ إقبـالِ الــوزيـرِ وقــد

قضَى لــه اليُمنُ والإقبـالُ مــا يجبُ

• فيهــا ثــلاثــةُ أعيــادٍ أتتْ نـسَقــاً

إذ عـاد عيدٌ، وصحَّ ابنٌ، وعاد أبُ!

[١٣]

وقال يستنجد ببني مرين، وقبائل المرغرب بخاصة، وسامعي النداء من المسلمين وراء بحر الزقاق بعامة، ويدعو إلى الجهاد، ويرثي ما ضاع من بلاد الأندلس[*]:

لِكُلِّ شيءٍ إذا ما تَمَّ نُقصانُ
فلا يُغَرُّ بِطيْبِ العيش إنسانُ
هي الأمورُ كما شاهدْتَها دُوَلٌ
مَنْ سَرَّهُ زمنٌ ساءَتْهُ أزمانُ[١]
3 وهذه الدّارُ لا تُبقي على أحَدٍ
ولا يدومُ على حالٍ لها شانُ
يُمزِّقُ الدَّهْرُ حَتْماً كُلَّ سابِغَة
إذا نَبَتْ مَشْرِفيَّاتٌ وخُرصَانُ[٢]

(*) أنشد الرندي القصيدة بعد تحالف إسبانية والبرتغال وأرغون، وتنازل ابن الأحمر عن عدد كبير من المدن والحصون ـ راجع الفصل الأول، من هذا الكتاب، وفقرة الجهاديات من الفصل الثالث.

(١) دال الزمان: انقلب من حال إلى حال، ودول ج دولة: انقلاب الزمان.

(٢) السابغة: الدرع الكاملة. المشرفيات: السيوف المنسوبة إلى المشارف، مشارف الشام: قرى من أرض العرب تدنو من الريف. والخرصان جمع خرص: الرمح.

وَينتضي كلّ سَيْفٍ للفَناء ولو
كانَ ابن ذي يزَن والغمد غِمدانُ(١)

6 أينَ الملوكُ ذَوُو التّيجان من يَمَنٍ
وأين مِنهُمْ أكاليلٌ وتيجانُ(٢)
وأين ما شادَه شدَّاد في إرَمٍ
وأين ما ساسه في الفُرس ساسانُ(٣)
وأين ما حازَهُ قارونُ من ذهَبٍ
وأين عادٌ وشَدَّادٌ وقحطانُ(٤)

9 أتَى على الكُلِّ أمْرٌ لا مَرَدَّ له
حتى قضَوْا فكأن القوم ما كانوا
وصارَ ما كان من مُلْكٍ ومن مَلِكٍ
كما حكى عن خَيالِ الطَّيْفِ وَسْنانُ

---

(١) سيف من ذي يزن من ملوك اليمن، وغمدان قصر كان له.

(٢) انظر «أذواء اليمن» في ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي ٢٧٩ - ٢٨١ وفي اللسان: الذوون الأملاك الملقبون بذو كذا كقولك ذو يزن وذو رعين وذو فائش. . . وهم ملوك اليمن من قضاعة، وهم التبابعة.

(٣) قيل في إرم أقوال منها أنها دمشق والاسكندرية، ونقل البكري أنه «وجد بالاسكندرية حجر نقش فيه أنا شداد بن عاد الذي نصب العماد. .» وساسان أبو طائفة عظيمة من ملوك الفرس.

(٤) نقل المفسرون في قارون أقوالاً، منها أنه «كان غنياً عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فتعدى عليهم وظلمهم وكان منهم» راجع تفسير القرطبي ١٣ : ٣١٠.

دارَ الـزمـانُ عـلى دارًا وقـاتـلِهِ
وأمَّ كِـسْـرى فـمـا آواهُ إيـوان[1]

12 كـأنَّمـا الصَّعْبُ لم يَسْهُـل لـه سببٌ
يـومـاً ولا مَلَكَ الـدُّنيـا سُليمـان

فجـائِعُ الـدَّهْـرِ أنـواعٌ منـوَّعَـةٌ
ولـلـزمـان مَـسَـرَّات وأحــزان

ولـلـحـوادثِ سُلوانٌ يُـهـوِّنُـهـا
ومـا لِمـا حَـلَّ بـالإسـلام سُلوانُ

15 دهَى الجـزيـرةَ أمـرٌ لا عَـزاءَ لـهُ
هَـوَى لـه أُحـدٌ وانهـدَّ ثَهـلانُ[2]

أصابَها العينُ في الإسـلامِ فارتُـزئتْ
حتـى خَـلتْ مـنـهُ أقـطارٌ وبـلدانُ

فـاسـألْ بلَنسِيـةً مـا شـأنُ مُـرسِيَـةٍ
وأيـنَ شـاطـبـةٌ أم أيْـنَ جَـيَّـانُ[3]

---

(١) هو دارا الأصغر قتله أصحابه في معركته مع الاسكندر. والإيـوان هو إيـوان كسرى الذي بالمدائن.

(٢) الجزيرة: جـزيرة الأنـدلس. أحد جبـل قريب من المـدينة. وثهـلان جبـل باليمن.

(٣) بلنسية ومرسية وشاطبة من مدن شرق الأندلس ـ وجيـان وقرطبـة من مدن متوسطة الأندلس.

18 وأيـن قُــرطبــةٌ دارُ الـعـلومِ فـكـمْ
من عـالمٍ قـدْ سَمـا فيهـا لـهُ شـانُ
وأينَ حِمْصٌ ومــا تحـويـهِ مِنْ نُـزَهٍ
ونَهْرُهـا العذب فَـيَّــاضٌ ومَــلآنُ[1]
قــواعِــدٌ كُنَّ أركــانَ البِــلادِ فَـمــا
عسَى الـبَقــاءُ إذا لـم تَبْـقَ أرِكــانُ؟
21 تبكي الحنيفيَّــةُ البَيضــاءُ من أسَـفٍ
كمــا بَكى لفـراقِ الإلْفِ هَمْيــانُ[2]
على ديــارٍ من الإســلامِ خــالـيــةٍ
قـد أُسْلِمَتْ ولَهـا بــالكُفْـرِ عُمْــرَانُ
حيث المساجدُ قد صارتْ كنائسَ ما
فِـيـهــنَّ إلا نَــواقـيسٌ وصُــلبــانُ
24 حتّى المحـارِيبُ تَبكي وهي جامِـدَةٌ
حتّى المنــابِـرُ تــرثي وهي عِيــدانُ
يـا غـافِـلاً ولـهُ في الـدَّهـرِ مـوعـظةٌ
إن كنتَ في سِنَـةٍ فـالـدّهْـرُ يَقــظانُ
ومــاشِيـاً مَــرحــاً يُلهيــهِ مــوطِنُــهُ
أبعـد حمصٍ تَغُـرُّ المـرءَ أوطـانُ؟!

---

(١) حمص هي مدينة إشبيلية، سميت بذلك لنزول جند حمص الشام (من طالعة بلج بن بشر) بها. وتقوم إشبيلية على نهر الوادي الكبير.

(٢) الحنيفية: الإسلام.

27 تلكَ المُصيبــةُ أنْسَتْ مـا تقــدَّمهــا
وما لَهـا مـع طُـولِ الـدَّهْـرِ نِسيـانُ

يــا أيُّهــا المـلكُ البَـيضــاءُ رايَتــهُ
أدركْ بسيفِكَ أهلَ الكُفْرِ لا كانـوا[١]

يــا راكبينَ عِتـاقَ الخيـلِ ضامِـرَةً
كـأنّهــا في مجــال السَّبْقِ عُـقْبــانُ

30 وحــاملينَ سُيــوفَ الهِنْــدِ مُـرهفــةً
كـأنّها في ظَـلامِ النَّـقْـعِ نـيـرانُ

وراتـعيـنَ وراءَ الـبَـحْـرِ فـي دَعَــةٍ
لـهمْ بـأوطـانِـهمْ عِـزٌّ وسُـلطانُ[٢]

أعنــدكمْ نَـبــأٌ من أهْــلِ أنــدَلُسٍ
فقـدْ سَـرىٰ بحـديثِ القَـوْمِ رُكبــانُ

33 كم يستغيثُ بَنُــو المُستضعفينَ وهُمْ
أَسْــرىٰ وقَتْلى فَمــا يَهـتَــزُّ إنْســانُ

مـاذا التَّقـاطـعُ في الإسـلامِ بينكُم
وأنــتـمُ يــا عــبــادَ الـلَّهِ إخْـوانُ؟

ألا نُـفــوسٌ أبِـيَّــاتٌ لـهَــا هِـمَـمٌ
أمــا علَى الخَيْــرِ أنْصَــارٌ وأعــوانُ

(١) انظر فقرة «الجهاديات» من الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(٢) المقصود بالبحر هنا بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) وهو المعبر ـ عادة ـ بين البلدين، على أن هناك طرقاً أخرى بين العدوتين أطول.

36 يـا من لـذِلَّـةِ قـومٍ بعـدَ عِـزِّهمُ
أحـالَ حـالَـهُم كـفـرٌ وطـغـيـانُ
بـالأمسِ كـانـوا مُلوكـاً في منـازِلِهمْ
واليـوَم هم في بلادِ الكُفْـرِ عُبْدانُ[1]
فلو تـراهُمْ حَيـارى لا دليـلَ لـهمْ
عـليهـمُ من ثِيـاب الـذُّلِّ ألـوانُ
39 ولـو رأيـتَ بُكـاهُـمْ عنـدَ بـيعِـهِمُ
لَهَالَـكَ الأمرُ واستهـوتْـكَ أحزانُ
يـا رُبَّ أُمٍّ وطِفـلٍ حِيْـلَ بينَهُمـا
كـمـا تـفـرّقُ أرواحٌ وأبْـدانُ
وطفلةٍ مـا رأتْها الشَّمسُ إذ بـرزَتْ
كـأنّما هِيَ يـاقـوتٌ ومَـرجـانُ[2]
42 يقـودُهـا العِلْجُ للمكـروهِ مُكْـرَهـةً
والعينُ بـاكيَـةٌ والقَلْبُ حَيـرانُ[3]
لمثـلِ هـٰذا يـذوبُ القَلْبُ من كَمَـدٍ
إن كـانَ في القلبِ إسْلامٌ وإيمـانُ

---

(١) تُجمع عبد على عبيد وعبدان، وغيرهما.
(٢) الطفلة: الرخصة الناعمة.
(٣) من معاني العلج: الرجل الضخم من أهل العجم.

[١٤]

قال أبو البقاء الرندي:

دَعِيْنِي وإنْ قيلَ: الجنونُ فنونُ
فالصَّبُّ مِثلي بالهَوىٰ مَفْتونٌ

بأبي الذي أشكُو هَواهُ وصدَّهُ
والصَّدُّ صَعْبٌ والهوىٰ تهوينُ

كتَبَ الجَمالُ بخَطِّهِ في خدِّه
والخَطُّ في حُسنِ الخُدود يَزِيْنُ

فكأنَّ رَقْم الدَّدِ منهُ أرْقمٌ
وكأنَّما لامٌ بهِ أوْ نونٌ

كابَدْتُ ما كابَدْتُ في حُبّي له
والموتُ في حَقِّ الحبيب يَهُونُ

وعَدا فأظهرتُ التجلُّدَ للعِدىٰ:
الوَجْهُ يَضْحَكُ والفُؤادُ حَزِيْنُ

أبكي ويَبْسمُ؛ بَيْننا ما بَيْننا
لا يَسْتَوِي المَسْرورُ والمَحْزُونُ

فكأنّما هو يُوسفٌ في حُسْنِه
وكأنّني من حُبِّه المجنونُ!

[١٥]

قال أبو البقاء الرندي في قدوم من سفر:

يــا ليلة الأُنس كم أدنيتِ من أَمَــلٍ
أشهىٰ وأعْـذَبَ من أَمْنٍ علىٰ وَجَـلِ
وكم تعـلّلتُ بــاللُّقيــا علىٰ شَـغَفٍ
وفيَ التَّعلُّلِ مــا يَشْفِـي من الـعِلَلِ
مــا زال يبسُــطني أُنسي ويَقْـبِضُـني
بُعْدِي، ويشفع لي شوقي، إلىٰ خجلي
حتّىٰ بَلَغْتُ مُنىً مــا كنتُ أَحسَبُـهــا
ومِنْ أكـذَّ المُنىٰ وَصْـلٌ بــلا عَـذَلِ
ولا كـيــوم لقــائي لـلوزيـر أبي
عمـرو وقَدْ عَـادَ عَوْدَ الحي لــلعَـطَل
لـــلّهِ فـــي وافـدٍ سَـرَّتْ وفــادَتَــهُ
مبـاركِ السَّعْي في حِـلّ ومُــرْتَحَـلِهِ
سَـرتْ إلىٰ الحَضـرة العلْيـا بـهِ هِمَمٌ
سَرَتْ مكارِمُهـا في الأرض كالمثـلِ
إلـىٰ مـقــامٍ جَـليـلٍ زادَهُ شَـرفــاً
إذْ حَلَّ فيه حُلولَ الشَّمْسِ في الحَملِ
ثمَّ انْثَنىٰ عنــهُ والأَقْــدارُ تَحْـفَظُــه
والسَّعْـدُ يصحَبـهُ مـا شـاءَ مِنْ أمَـلِ

خُـذْهـا إليـك أبـا عمـرٍو مهنَّئَـةً
أَزْهىٰ من الحُسْنِ في أَبْهىٰ من الحُللِ
عـذراءَ قد بَـان فيها عُـذْرُ حاسِـدِهـا
إذ عـاذِلُ المَـدْحِ فيه رقَّـةُ الغَـزلِ!

[١٦]

قال أبو البقاء الرندي في وصف الأُقْحُوان:

إذا أردتَ لـوصفِ الأُقْحُـوانِ فَقُـلْ
كـأنَّـمـا هـو ثـغـرٌ فيـه ديـنـارُ
ومُـقْلَةٌ مـن فَتِيْتِ الـبُـرِّ محكمـةٌ
لهَـا من الفِضَّـةِ البَيْضـاءِ أشفـار(١)

[١٧]

قال أبو البقاء الرندي في وصف حَبِّ المُلوك(٢):

فـتـح الـحَـبُّ نَـوْرَهُ فَـحَـسِـبْـنـا
أنَّ فـي الـرَّوْضِ قُبَّـةً مـن شَقـيـقِ
ثـم أَجْـرىٰ نُـوارَهُ عـن سُـلوكٍ
مـن حَـريـرٍ فـصـوصُ عَـقـيـقِ!

---

(١) الأشفار: الأجفان.
(٢) هو المعروف عند المشارقة بالكرز. ولاّ يزال اسمه حبّ الملوك في المغرب العربي.

[١٨]

قال أبو البقاء الرندي في التفاح:

تُفَّاحَةٌ كَالمِسْكِ تفَّاحَةٌ
يَصْبُو لَهَا النَّاظِرُ والنَّاشِقُ
جَرَتْ بها الحُمْرَةُ في صُفْرَةٍ
كما التقىٰ المَعْشُوقُ والعاشِقُ!

[١٩]

قال أبو البقاء الرندي:

المرءُ شِبْهُ خَيالٍ
وصُورَةُ العَيشِ نَومُ
آخِرُ العَيْشِ مَوْتٌ
وجُملَةُ العُمْرِ يَوْمُ

قال: ولما تُـوفيّ أمير المسلمين ـ رحمـة اللّه عليه ـ كتبت إلى حضرة ولي عهده ابنـهِ أمير المسلمين ـ أيـده اللّه ـ معزيّـاً ومهنئاً بالبيعة:

«المقـامُ العليّ السُّلطاني المـولـوي ـ أطـالَ اللّهُ بَقـاءَهُ ـ وحلمـه كالهَضْب لا يُسْتنـزَل، وحَزْمُـه كـالعضب لا يفـل[1]. وبيتُ مجـدِهِ لا تـ [illegible] زعـه النّـوائب، وفعـلُ سَعْـدِه لا تجـزمـهُ الشّوائب.

أما بعدَ حَمْدِ اللّه الذي تعرّفَ لعبادِه فعُـرف وعُبد، وأنفـذَ أحكام مُراده فشُكِرَ وحُمِد. والصّلاة على سيدنـا محمد أكـرم من وُلد وأعز من فقد؛

فإنّ خديم المقام الكريم المُمْتسك بعروته، المعُتصم عند الشّدائد بحبُوته ابن شريـف. كتَبه من رُندة ـ حرسها اللّه ـ عن رَوع مَرُوع، وفؤاد مَصْدُوع. تقـطّع فاستحـال نَجيعاً، وجـرى فصارَ مع الـدُّموع دُمـوعاً. الخـطب الفادح. والملمّ القـادح. والرُّزء الذي طاشَتْ له الأحلام، وفجع فيـه الإسلام. والنّعي الذي استكّت به المسَامِعُ، وانهلّت له المَدامع. بوفـاة مولانـا

---

(١) الهضبة: الجبـل المنبسط عـلى الأرض، أو جبـل خلق من صخـرة واحـدة. والعضب: السيف.

الملك الهُمام الأوحد، الأرفع الأمجد، المجاهد الأرضي الأسعد المقدس المرحوم أبي عبد اللّه أمير المسلمين وناصر الدين كرم اللّه مثواه، ونفعه بما أولاه. فقد كان للعَدل إماماً، وللدّين قواماً، وللمُلك تاجاً وحُساماً. إن كُوثِر فتُبَّعٌ[1] في حمير، أو كُوبِر فما كسرى وقيصر؟ أو زُوحِم فرضوى، وثُمام[2] أو كورم فما البحر والغمام. هذا وكم مقام للّه قامه[3] وغمْرٍ خاضَه، وصعْبٍ راضَه. وداءٍ شفاه، وعدوّ كفاه. وكرب فرَّجه. وذكرٍ بعده أرجه[4] فلطَالما جاهدَ في اللّه حَقّ جِهاده، وأجهد نفسَه النّفيسة في اجتهاده. يسهرُ لتنامَ العُيون، ويصل الحَركات ليتّصل السُّكون، ويُعد للحادث ولعله لا يَكُون.

سياسةٌ شدّ لها حيازيم الحزم[5]، ورياسَةٌ أَعدّ لها صبر أُولي العزم. إلى أن حُمّ حمامهُ، وتقضَّت أيّامُهُ. فُهَدّ طودُه الشّامخ، وطُوِيَ مجدُه الباذخ. وأصبحَ خبراً يُذكر، ومُضمِراً

(١) تبع واحد التبابعة وهم الملوك باليمن ونواحيها: «ولا يسمى به إلا إذا كانت له حِمير وحضرموت».

(٢) في القاموس: وصخيرات الثمام إحدى مراحله ﷺ إلى بدر.

(٣) جملة لم تتضح في نسختي الوافي.

(٤) الأرج: توهج ريح الطيب.

(٥) الحيزوم: ما استدار بالظهر والبطن أو ضلع الفؤاد وما اكتنف الحلقوم من جانب الصدر.

لا يَظهر. كأنْ لم يكن للهوى جَبينه، وللندّى يمينه. وللنصر أعلامه، وللفخر أقلامه.

أما ومآثر ذخرها للفَخر، وأبقاها كالوحي[1] في الصّخر. لو أن بكاءً يشفي من وَجْد، ويردّ فائت مجد؛ لأسيلت عليه الدّموع حُمراً، وحُشيت الأحشاء جمراً، وقتل ما بينهما الصبر صبراً.

ولولا حُسن الخَلف من بعده، بمولانا ولي عهده، وسليل مجده؛ لقلنا ذهب البأس والكرم، وعُطل السيف والقلم. وغاض ماء الندى، وطفىء مصباح الهدى. ولكنّه ما أفات مجده، من أبقى مثل مولانا بعده. ولا انصرَم شرفه، من كرم خلفه. وما عُدم الوِرد وقد بقي ماؤه. ولا فُقد البدر إذا وجد ضياؤه.

ومولانا أحْسَن اللّه عزاءه، وضاعفَ جزاءه، يتذكّرفقد النبي ﷺ فيتماسك في مصابه، ويكفّ عن أوصابه[2]. ومثل حلمه لا يستزلّه الوَهل، ولا يستخفّه الوَجل. وإذا كان الموت غاية الأحياء، ونقلة من الفناء إلى البقاء. فما الجزع على فقيد أعد لرحيله، ثم مضى لسبيله. وافداً على باب الكريم، حسَن الظن بالرب الرحيم. واللّه يُجمل صبر المولى وعزاءه.

---

(١) الوحي: الكتابة.

(٢) الوصب: المرض والوجع.

ويجعل الأجر إزاءه. وهو سبحانه يطيل بقاءه، ويجعل السعد وفاءه؛ بمنّه.

وكتبت مع ذلك:

مـا جلّ خـطبٌ كمثِل الحـادثِ الجَللِ
فليقْضِ حَقَّ الأَسىٰ بـالأدْمُـع الهُمـلِ
مُـصـابُ مـنْ فُجِعَ الإسـلامُ فيه ومَـنْ
سـكَّ المسـامـعَ منـه هَـدَّةُ الجبـلِ[1]
وإن تكنْ طـاشَتِ الأحـلامُ من جـزَعٍ
فليسبق العُـذْرُ سبقَ السَّيفِ لـلعـذلِ
يـا حسـرةَ الـدِّين والـدُّنيـا على ملكٍ
قـد كـانَ حسبهمـا لـو مُدَّ في الأجـلِ
أصـابَـهُ من وراءِ الحُجب صـائـبـهُ
إن الـمنـونَ لأرمـى مـن بَـني ثُـعـلِ
وزاولَ الـمـلك دَهْـراً ثـم فـارَقـه
وزالَ عـنـهُ وذاكَ الـفَـخْـرُ لـم يَـزُلِ
تـنصَّـل الـجيشُ مـنـه حيـنَ أسْلمَـهُ
وليسَ في الموتِ من حَوْلٍ ولا حِيَلِ[2]

---

(١) سكّ المسامع: أصمها.

(٢) تنصل من الشيء. خرج منه وتبرأ. وفي أصل المخطوط: تنصل فيه.

فـالصَّيْدُ شـاكيـةٌ والخيـلُ بـاكيـةٌ

والـرُّمحُ ذو وجَـلٍ والسَّهْمُ ذو خجـلِ

كم في الـعـروبـة من سـرٍّ لـمُعْتبـرٍ

صرنا إلى الـوجد والمـولى إلى الجدَلِ

مـضى لـرحـمـة مـولاه وأنـزلـه

مـا قـدمـتـه يـداه أكـرمَ النُّـزلِ

كم غَمْـرَةٍ خـاضَهـا والثغـرُ مبتسـمٌ

والمـوتُ يخـطرُ بين البِيْضِ والأسـلِ

وصـعبـةٍ راضَـهـا والحـزمُ مـعتـصِمٌ

والـرأيُ ينجـحُ بين القَـوْلِ والعمـلِ

ومـا عَسى أن يُمَـدّ القـولُ فـي مَلكٍ

مـا خـامَ عن كـرمٍ يَـوْمـاً ولا بـطلِ[1]

ولا ازدهَتْـهُ مُنىً يصبُـو الحـليمُ لـهـا

ولا سَـبَتْـهُ ذواتُ الأعـيُـنِ الـنُّجُـلِ

وإنّـمـا كـان والـعَـلـيـاءُ تـحـفـظُهُ

بـالمكْـرُمَـاتِ عن اللّذاتِ في شُغـلِ

سقتْـهُ مِن دِيَمَ الـرُّحْمىٰ مُـفَضْـفَضَـةٌ

تمـدُّهـا مُـذْهَبـات الأدْمُـعِ الهُمُـلِ

---

(١) خام عن الأمر: نكص وجبن.

فكم شفى للظُّبــا والسُّمْــرِ من غُـلَلٍ

وكم شَفىٰ للعُـلى والمـجْــدِ من عِـلَلِ

مــولايَ مــولايَ آلافــاً مُــكَــرَّرةً

لــو كان يُجـدي نداءُ الـوَجْدِ والـوجـلِ

أصبحتَ فينـا على حُكْم الـرَّدىٰ خبــراً

فكنتَ كالضّيف أو كالـطيف في المثلِ

كــأنّ وجـهَــك لم يُـشْــرِق لنــاظِــره

كالبدرِ في السّعد أو كالشّمسِ في الحَملِ

كــأنّ كَـفّــك لـم تُــبْـسَطْ لآمــلهــا

يَـوْمـاً ولا عُـرِضَـتْ للجُـــودِ والقُبَلِ

نَبْكِي عَليــكَ ونَـفْنىٰ حَسْــرةً وأسىً

والـــدمــعُ حِيلَةُ من يَعْيَىٰ عن الـحِيَــلِ

والصبــرُ أجمـلُ لــو يُلْفىٰ السَّبيـلُ لــهُ

وأيّ صَبْــرٍ لقـلبٍ غيــرِ مُـحْتـمــلِ؟

يــا وارثَ المَجْدِ والمُلْكِ الـذي كَـرُمَتْ

مــنــهُ الخِــلالُ فـمَــا فِيْهِنَّ مــن خَللِ

سَلِّمْ لِمــا قَـد جَـرى حكمُ القضـاءِ بــه

فـكــلُّ شَيْءٍ مـن الأشيــا إلـى أجَــلِ

ومــا بُكـا العَيْنِ بعـــد الشّيءِ نـافِعُهــا

وإنّـمــا طَـللُ الـمـفـقـودِ كــالــطَّللِ

وأنتَ أكرمُ من يُعْزىٰ العزاءُ لَهُ
وأنت أثبتُ عند الهولِ والوَهَلِ[1]
وإن مضىَ عنكَ مَولىً لا نظيرَ لهُ
فقد مضىَ المُصْطَفى المُخْتَارُ في الرسلِ
وإن غَدا مُضْمَراً عنّا فأنتَ لهُ
كالنّعتِ، كالعَطْفِ، كالتّوكيدِ، كالبَدلِ!
وفي بقائكَ للإسلامِ تسليَةٌ
وفي الأواخرِ ما يُسْلِي عن الأُوَلِ
لا زلتَ للمُلْكِ والإسلامِ تَنْصُرهُ
حتّى تُبلَّغَ فيه غايَةَ الأَملِ

(١) الوهل: الفزع.

[٢١]

قال الرُّندي: وقلت في رثاء أبي - رحمه الله:

دَع الـغُـرورَ فمـا لـلخُلدِ مـن سبَبِ
ولا قـرارَ بـدارِ الـلَّهـوِ والـلَّعـبِ

يـا بـانيـاً لقُصـورٍ سـوفَ يَتـركُهـا
لِمن سَيملكهـا قَسْـراً بـلا تَعبِ!

وطـالبـاً لضـروبِ المـالِ يجمَعُهـا
لمن سيـأخُـذهـا عَفْـواً بـلا طَلبِ

وغـافِـلاً أبَـداً عـمّا يُـراد بـه
أسْـرَفـت في غُلَواء الـغَـيّ فـاتَّئبِ[1]

أما تَـرى الـدَّهـر لا يُبقي على أحـدٍ
أينَ الملوكُ ومن صـانـوه في الحجبِ

هـو الحِمـامُ فـكنْ مـنـهُ على حـذَرٍ
ويـح الـمُسَـوِّفِ إنْ أودىٰ ولـم يَتُـبِ

يـا ابنَ الشَّبـابِ أفقْ من خَمْرِ سكـرتـهِ
كم من فتىً فـارقَ الـدُّنيـا ولم يَشبِ

ويـا أخـا الشَّيـب مـاذا أنتَ مُـنتـظرٌ
خـذْ في الرَّحيـل فقد نُـودِيتَ من كثَبِ

---

(١) اتأب: خزي واستحيا.

لا يتــركُ الــدّهــرُ مملوكــاً ولا ملكــاً
ولا يُبــالِي الـردّى بــالجَحْفَـلِ اللَّجِبِ
ولــو نَـجـا مـنــه مــخلوقٌ لأثْــرَتِــهِ
لكـانَ فيمن نَجـا من الحِمـام أبي. . .
يـا سيّـداً صـارَ بـطنُ الأرضِ مسكنَــهُ
ـ والـتُّربُ يـودَع فيـه خـالِصُ الـذَّهبِ ـ
لـم نَـلْثُـم الــتُّربَ إجــلالاً وتـكــرمــةً
إلا لـمــوضِعِهــا من خَــدِّكَ التَّــرِبِ
ولا بَـكيـنــا ونحـنُ الصــابــرونَ دِمــاً
إلا لـشــدّةِ مــا نَـلْقـىٰ مـن الــوَصَبِ
مــولايَ مــولايَ آلافــاً أردِّدُهــا
لــو أنهــا دعــوةٌ تَشْـفِي مـن الكُــرَبِ
لـم يبـق بعــدك لـي شـيء أُســرُّ بــهِ
فكيف بعدكَ لي في العيشِ من أَرَبِ؟

[٢٢]

وقال في كتاب روضة الأنس ونزهة النفس، عند ذكر «الأندلس» من شعر ونثر:

الأندلس:

هي أختُ الشّام في خصبِها وجلالها، وضَرّةُ العراق في بهجتها وجمالها. وكان يقالَ: إنِ حيّها سعيد وميتها شهيد. وذلك لأنّ منصبها سَنِيّ ومعتقدَها سُنِيّ. مع ما خُصّت به من رَوقة مغانيها ورقة مغَانيها، وخُلوِّها من الفَيافي المُرْدِيَة، ومن السّباع المُودِيَة، وبالجملة فهي كما قال الخفاجي:

إن للجنّةِ بالأندلسِ مُجْتَلى حُسنٍ ورَيَّا نَفسِ
فسنَا صُبحَتِها من شنَبٍ ودُجىٰ ظُلمتِها من لعَسِ
فإذا ما هَبّت الرِّيحُ صَباً صِحْتُ: واشَوْقي إلى الأندلُسِ

وكانت قواعد الأندلس على قديم الزّمان: قُرطبة، وإشبيلية، وغرناطة، وطُليطلة، ومارِدَة، وسَرَقُسطة. وكانت ملوك القوط تتخذ في كل فصل من فصول السنة بلداً من هذه البلاد. ففي فصل الربيع مارِدة، وفي فصل الصيف إشبيلية، وفي فصل الخريف قرطبة، وفي فصل الشتاء طليطلة.

وكانت سَرقُسطة في صدرِ الإسلام بالأندلس قاعدة الثَّغرِ الأعلى.

وقيل إنها [يعني الأندلس] تُضاهي مَدائِنَ العِراق في أنهارها، وكثرةِ أشجارِها. وقد مضت تلك القواعدِ بسبيلها، وأمرُها مشهور. وقاعدة الأندلس في زماننا هذا غَرْناطة ـ حَرسها اللّه ـ وهي حضرةُ الإمارة النصرية أسماها اللّه تَعالى، تخترقُها المياهُ نحواً من أربعين ميلاً. وبداخِلها وخارِجها روضاتٌ ومُتَنزّهات؛ رائقةُ المسميَّات والأسماء. تشابهت فيها الأرضُ بالسماء، «كالسّبيكة» و«نَجْد» وغيرهما من معاهد صور، ومَغانٍ جَمعت بين السِّباءين[1] الممدود والمقصور كما قلت من قصيدة:

ما بين «نَجْدٍ» والسّبيكةِ والحِمى
أرضٌ سمَتْ حُسْناً فأشْبَهتِ السَّما
أو ما رأيتَ النَّهْرَ سالَ مجَرَّةً
فيها فأطلَعت المَزاهِرَ أنْجُما
حيثُ التفافُ الدَّوْح ينشرُ ظِلَّهُ
بُرْداً بِمطروزِ المَذانِبُ مُعْلَماً[2]
والرَّوضُ يسبكُ كل ماءٍ فِضّةً
والحُسنُ يَطْبَعُ كل نَوْرٍ دِرْهَما...»

(1) السبا والسباء: الخمر.

(2) المذنب: مسيل الماء إلى الأرض، والجدول يسيل عن الروضة.

[٢٣]

قال الرُّنـدي في روضة الأنس أيضاً، في أثناء أحد استطراداته «وقد رُثِي الحُسَين قديماً وحديثاً[١]. وممّن بكاهُ فأحزنَ ورثاه فأجاد وأحسن أبو بحر صفوانُ بنُ إدريس الأندَلُسيّ رحمه اللّه[٢]. ومن عجيبِ ما حُكي عنه أنه دخل مرّاكش في أيام المنصور بن عبد المؤمن ـ رحمه اللّه ـ وهو صِفْرُ اليدين مُنقطع الحيلة: لا كيفَ ولا أين! لا يملك فَتيلاً، ولا يجد للقاء السلطان سَبِيلاً. فعكفَ على رثاءِ الحُسَين يبكي مُصابَهُ، ويُذكي به أوْصابَه. فَنُبِّه المنصور في الليل عليه، وأمِر بالإحسان إليه. بعناية نَبويّة جَبرت فؤاده، وأقامَتْ مُنآده. فاستحضَره المنصورُ ـ رحمه اللّه ـ وكَشف له عن غَيْبِهِ، وأمكنَهُ من سَيْبِهِ. وبالغَ في بُلوغ أرَبِهِ، وأنفذَ له ما أمَر بِهِ.

---

(١) عن التشيع في الأندلس، راجع مقالة الدكتور محمود مكي في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد العدد ١ ـ ٢ سنة ١٩٥٤ وانظر مقدمة كتاب: درر السمط في خبر السبط لابن الأبار الأندلسي، الذي حققه الدكتور عبد السلام الهراس وسعيد أحمد أعراب (تطوان ١٩٧٢).

(٢) أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسي ٥٦٠ ـ ٥٩٨. شاعر من مرسية بالأندلس له شعر ونثر. وألف كتاب: زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، الذي حققه عبد القادر محداد (الجزائر). وانظر مقدمة الكتاب ففيها تفصيل عن صاحبه وأخبار.

وفي ذلك يقول مرج كحل[1] من قصيدة له:

وَنُبِّئْتُ عن صفوانَ نيلَ كَرامةٍ
حَباهُ بها الرَّحْمنُ والخُلَفاءُ

ولِلّهِ في صَفْوان أَيَّةُ آيةٍ
تكشَّفَ عنها للعِظام غِطاءُ

فما ضاعَ منهُ في الحُسَين انتصارهُ
ولا خابَ عندَ اللّهِ فيهِ جَزاءُ

وحسنياته[2] رضي اللّه عنه كثيرة مشهورة نذكر منها ما يليق بهذا الكتاب بحول اللّه عز وجل فمن ذلك قوله:

أنْدُب الطف وسِبْطَ المُصطفى
بمرَاثٍ هيَ أسرَى مِنْ: «قِفَا»

لا ترُمْ ضوءَ هُدىً من بعدهِ
فسِراجُ الهَدْيِ بالطَّفِّ انْطَفا...

وممّا أحسن فيه الإنشاء وأجاد ما شاء المخمَّسة التي نظم أقسامها على حروف المعجم، وذيّل مراكِزَها بأعجازٍ من

---

(١) أبو عبد اللّه محمد بن مرج الكحل (ويقال فيه مرج كحل) من أهل جزيرة شُقر (بلدة ابن خفاجة). وهو توفي سنة ٦٣٤ ببلده. وكان شاعراً مبدعاً، وخلف ديوان شعر كان متداولاً.

(٢) كذا في أصل المخطوطة. ولعلها: حسينياته.

قصيدة امرىء القيس التي أولها (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) منها:

ديارُ الهُدى بالخَيْف والجَمراتِ   إلى مُلْتَقى جَمْعٍ إلى عرَفاتِ
مَجاري سيولِ الغَيْم والعَبراتِ   معارفُ هَدْيٍ أصبحَتْ نَكِراتِ
لِما نسجَتْها من جَنُوبٍ وشَمْألِ

قال صاحب الكتاب[1]: وقد ألمَعْتُ بطريقةِ صفوان - رحمه الله - في رثائِه عليه السلام بجملةٍ حَذوتُ فيها حَذْوَهُ فبلغتُ شَأوه بما هو في المعنى أغْرَب وإلى الحال أنْسَب[2]. وذلك أنّي صنعتُ مخمسةً على حُروفِ المُعجم مُذَيّلةً بأعجازٍ من قصيدة زهير؛ فيها:

أبيتُ فلا يساعِدُني عَزاءُ   إذا ذُكِر الحسينُ وكربلاءُ
فخلِّ الوجْدَ يفعل ما يشاءُ   لمثِل اليومِ يُدَّخرُ البكاءُ!
«عَفا من آلِ فاطِمَة الجَواءُ»

بعينكَ يا رسولَ اللّهِ ما بي   دمُوعي في انهمالٍ وانسِكابِ

---

(١) كتاب روضة الأنس.

(٢) لم آنس في آثار الرندي ولا في أخباره ما يدل على تشيعه بالمعنى المذهبي. غير أن هذا النص يدل على عطف الرندي على آ البيت ومحبته فيهم. ولم أقف على غيره في تراثه وأخباره.

وقلبي في انتهـاب والتهـابِ   على دَارٍ مكـرّمـةِ الجَنـابِ
«عَفْتها الرِّيحُ بعدكَ والسَّماءُ»

بكيتُ منـازلَ الصَّبـرِ السؤاةِ   بمكـةَ والمـدينـةِ والفُـراتِ
معـالمُ للعُـلا والمكـرُماتِ   عفَتْ آثـارُها وكـذاك يَـاتي
«على آثارِ مَنْ ذهبَ العَفاءُ!»

مصادر الكتاب

● المصادر المخطوطة

الإحاطة في أخبار غرناطة (نسخة مصورة في مكتبة صديقنا الأستاذ الدكتور أحمد بدر). ثم طبع الكتاب في أربعة أجزاء.

روضة الأنس ونزهة النفس (نقول من مخطوطة الأستاد محمد المنوني).

الوافي في نظم القوافي للرندي (النسخة التيمورية ونسخة الرباط).

● مصادر البحث ومراجعه المطبوعة

إحكام صنعة الكلام لمحمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي تحقيق د. محمد رضوان الداية - بيروت.

الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى للسلاوي (المغرب).

المغرب في حلى المغرب لابن سعيد. ت. د. ضيف.

اللمحة البدرية في الدولة النصرية - ابن الخطيب - القاهرة.

المعيار في أوزان الأشعار للشنتريني - ت . د. الداية.

البيان المغرب لابن عذاري (طبعة مصورة).

تاريخ الأدب الجغرافي - كراتشكوفسكي - مترجم - القاهرة ج ١ - ٢.
التاريخ الأندلسي د. الحجي - ط دمشق.
تاريخ الشعوب الإسلامية لبرو كلمان (مترجم) - بيروت.
تاريخ الفكر الأندلسي. بالنثيا - مترجمة د. مؤنس.
تاريخ النقد الأدبي في الأندلس - د. الداية - بيروت.
الحلة السيراء لابن الأبار القاهرة ج ١ - ٢.
ابن خفاجة (دراسة د. الداية) - دمشق.
درر السمط في خبر السبط - تطوان.
ديوان ابن سهل الإشبيلي - بيروت (دار صادر).
الذخيرة السنية لابن أبي زرع - الرباط.
الذيل والتكملة لابن عبد الله المراكشي - الدكتور إحسان عباس والدكتور محمد بنشريفة - بيروت.
رحلة ابن جبير (دار صادر).
الروض المعطار للحميري (ل. بروفنسال) مصر.
زاد المسافر - صفوان بن إدريس - الجزائر.
الشعر الأندلسي - غومز - ت مؤنس - القاهرة.
صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد (٦/١).
صلة الصلة لابن الزبير (بروفنسال).
عصر المرابطين والموحدين (ت) عنان - القاهرة.
عصر الطوائف والمرابطين د. إحسان عباس - بيروت.
مختارات من الشعر الأندلسي د. الداية - دمشق.

للمُحقِّق

في سلسلة دراسات أندلسية :

١ ـ تـاريـخ النقـد الأدبي في الأنـدلس ـ دار الأنـوار (بيـروت ـ دمشق) ١٩٦٨ . ا الطبعة الثانية ـ مؤسسة الرسالة ـ دمشق ١٩٨٠ .

٢ ـ المعيـار في أوزان الأشعار لمحمـد بن عبـد الملك الشنتـريني ـ الـطبعـة الأولى ـ دار الأنوار (بيروت ـ دمشق) ١٩٦٨ . الطبعة الثـانية ـ دمشق ١٩٧٠ . الطبعة الثالثة ـ دار الملاح ١٩٨٠ ـ دمشق .

٣ ـ مختـارات من الشعر الأنـدلسي ـ المكتب الإسـلامي ـ دمشق ١٩٦٩ . الطبعة الثانية ١٩٧٢ ـ دمشق . (نفد) .

٤ ـ ديوان ابن خاتمة الأنصاري ـ تحقيق ـ صدر عن وزارة الثقافـة بدمشق ١٩٧٢ . الطبعة الثانية ـ دار الحكمة ـ دمشق ـ ١٩٧٩ . (نفد) .

٥ ـ الإنصاف بذكر أسباب الخلاف لابن السيِّد البـطليوسي ـ تحقيق ـ نشر دار الفكر بدمشق ١٩٧٣ .

٦ ـ شـرح مشكل شعـر المتنبي ـ لابن سيـدة الأنـدلسي ـ تحقيق ـ نشر دار المأمون بدمشق ١٩٧٥ .

٧ ـ ديوان أبي إسحاق الألبيري ـ تحقيق ـ نشر مؤسسة الرسالة (بيروت ـ دمشق) الطبعة الثانية ١٩٨٢ م .

ـ أعلام المغرب والأندلس ـ مؤسسة الرسالة ـ .. (نقد) .

٩ ـ رائق التحلية في فائق التورية لابن زرقالة ـ دار الحكمة ـ دمشق ١٩٧٩ . (نقد) .

١٠ ـ ديوان ابن عبد ربه ـ مؤسسة الرسالة ـ دمشق ١٩٧٨ . (نقد) .

في سلسلة الذخائر :

١ ـ ابن خفاجة (دراسة) نشر المكتب الإسلامي ـ دمشق ١٩٧٢ .

٢ ـ أبو البقاء الرندي (دراسة) نشر مؤسسة الرسالة (دمشق ـ بيروت) ١٩٧٦ . الطبعة الثانية بيروت ١٤٠٦ ـ ١٩٨٥ .

في المكتبة الأندلسية :

١ ـ إحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور الكلاعي ـ (تحقيق) بيروت ـ دار الثقافة ١٩٦٥ . الطبعة الثانية ـ عالم الكتب بيروت ١٤٠٥ ـ ١٩٨٥ .

٢ ـ نثير فرائد الجمان لابن الأحمر ـ (تحقيق نص أندلسي) دراسة عن المؤلف وأدبه وكتابه دار الثقافة ـ بيروت ـ ١٩٦٦ . (الطبعة الثانية للنص ـ عالم الكتب ـ بيروت ١٤٠٥ ـ ١٩٨٥) .

أعمال أخرى :

[ـ الجمان في تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادي ـ تحقيق بالاشتراك ـ نشر وزارة الأوقاف ـ الكويت ـ ١٩٦٧ . (نقد) .

٢ ـ أعلام الأدب العباسي ـ تراجم واختيارات ـ نشر دار الفارابي ـ دمشق ١٩٧١ والطبعة الثانية في مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٩٧٩. (نقد).

٣ ـ ابن زيدون (محاولة لإعادة النظر في دراسة شخصيته وشعره) بحث قدم إلى مهرجان ابن زيدون في ذكراه الألفية بالرباط (المغرب) ـ منهج جديد لدراسته. (نقد).

٤ ـ المنصف لابن وكيع التّنيسي (تحقيق) ـ دمشق ـ ١٩٨١.

٥ ـ تفسير ابن جزي (تحقيق بالاشتراك) بديء بطباعته في مؤسسة الرسالة دمشق ـ بيروت.

٦ ـ بحوث في الأدب الأندلسي ـ طبع جامعة دمشق ـ ١٩٨٠. (نقد).

٧ ـ الأدب العربي في الأندلس والمغرب ـ جامعة دمشق ١٩٨٣.

تحت الطبع:

ـ لسان الدين بن الخطيب: في سلسلة الذخائر.

ـ ابن زيدون: دراسة في ضوء منهج جديد. في سلسلة الذخائر.

ـ أبو إسحاق الإلبيري الأندلسي: زاهد الأندلس الثائر في سلسلة الذخائر.

ـ ديوان أبي الحسن بن الجيّاب ـ تحقيق ودراسة.

ـ أمة قد خلت (دراسة).

ـ ديوان ابن زيدون في سلسلة دراسات أندلسية.

ـ رحلة البلوي. في سلسلة دراسات أندلسية.

ـ ابن زمرك شاعر قصر الحمراء (دراسة) في سلسلة الذخائر.

- جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتّاب لابن عبد الملك الشنتريني (تحقيق ودراسة).
- ديوان أبي الطيب المتنبّي بشرح الواحدي.
- ابن أبي الخِصال رئيس كتاب الأندلس - في سلسلة الذخائر.
- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني تحقيق د. محمد رضوان الداية ود. فايز الداية الطبعة الثانية بيروت ١٤٠٦ هـ.
- الحماسة المغربية.
- رايات المبرّزين لابن سعيد المغربي الأندلسي.



فهرس الكتاب

ابو البقاء الرندي

شاعر رثاء الأندلس